شادي عبّود

430

العاشقون

A.S.

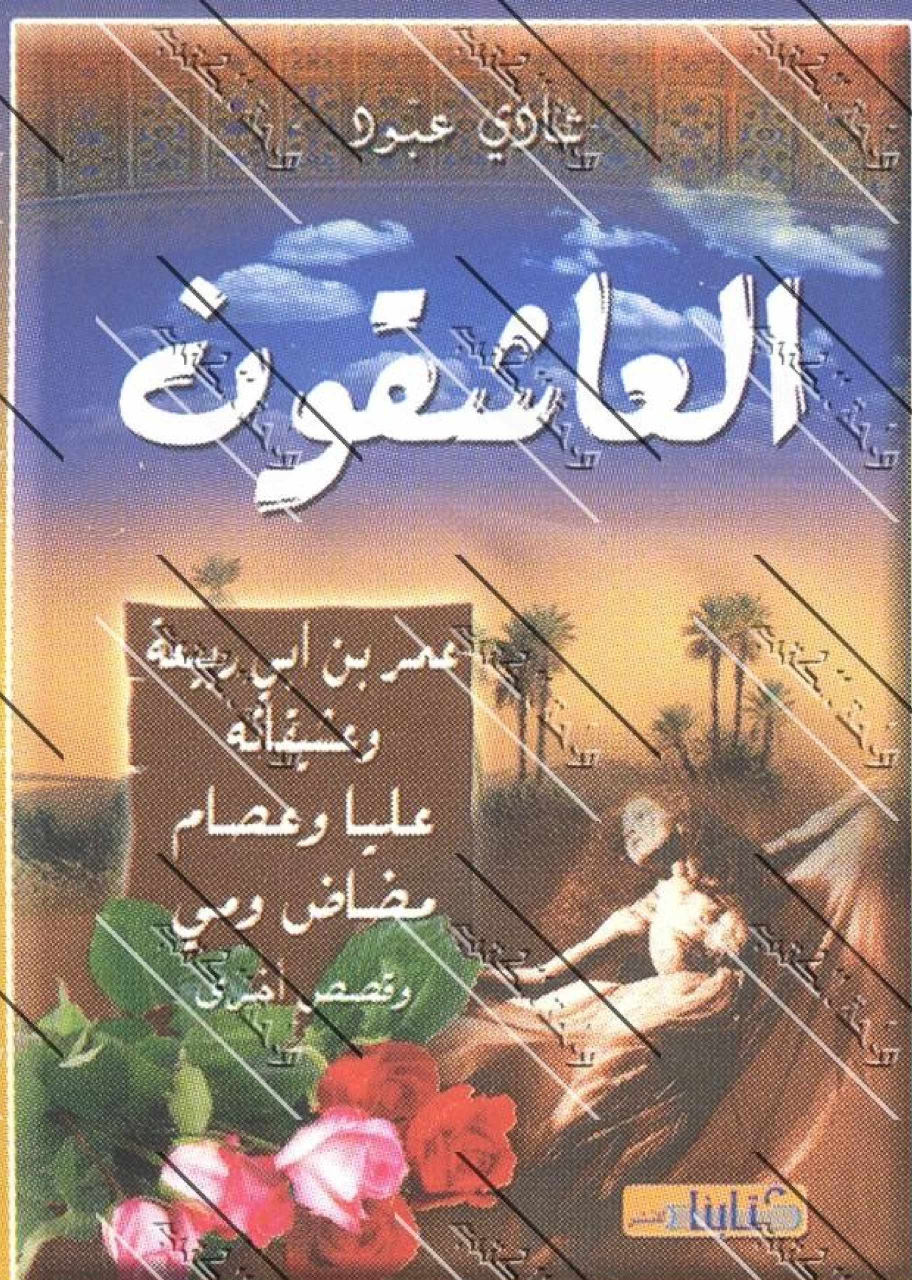
كُثيِّر وعزّة
توبة وليلى الأخيلية
عروة وعفراء

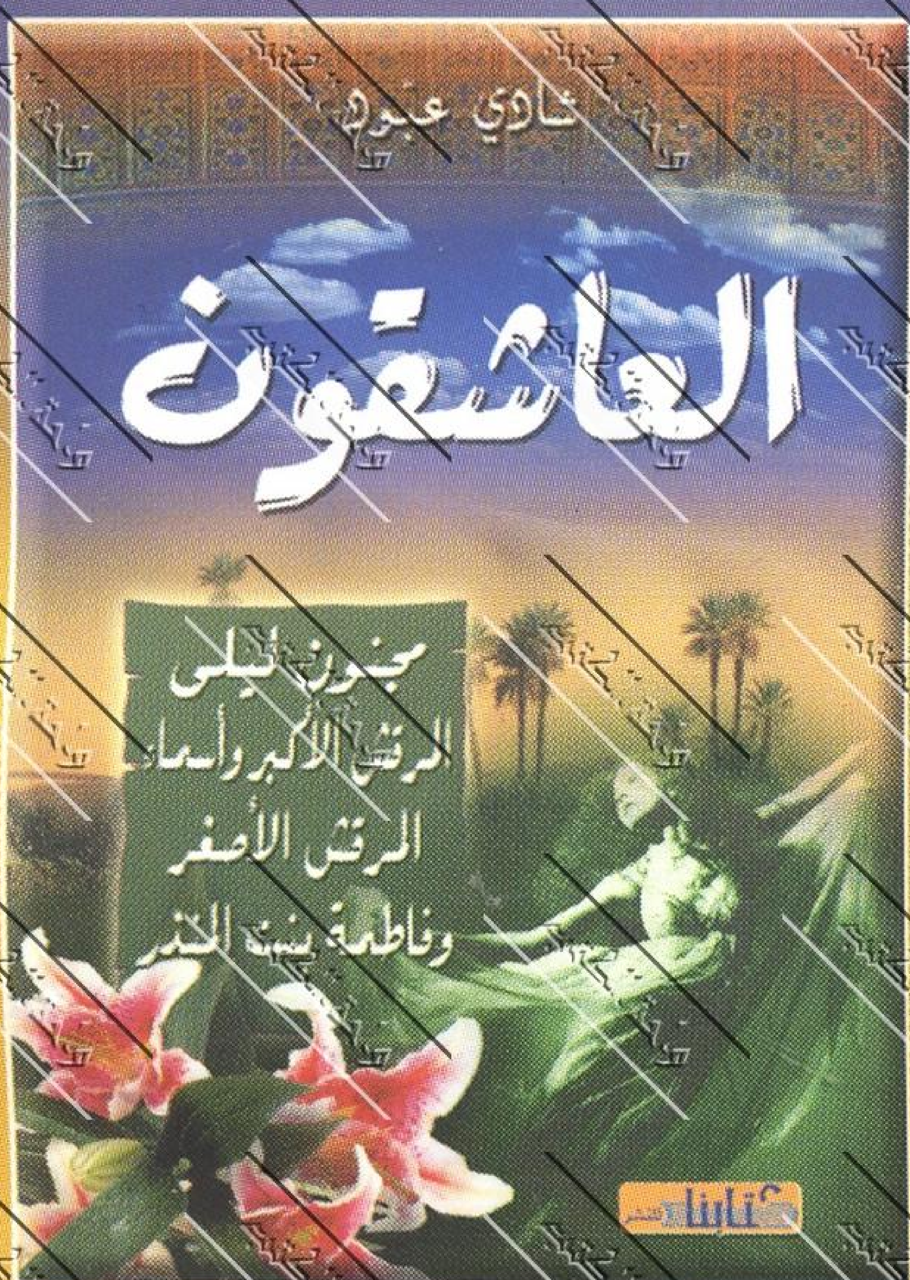
كتابنا للنشر



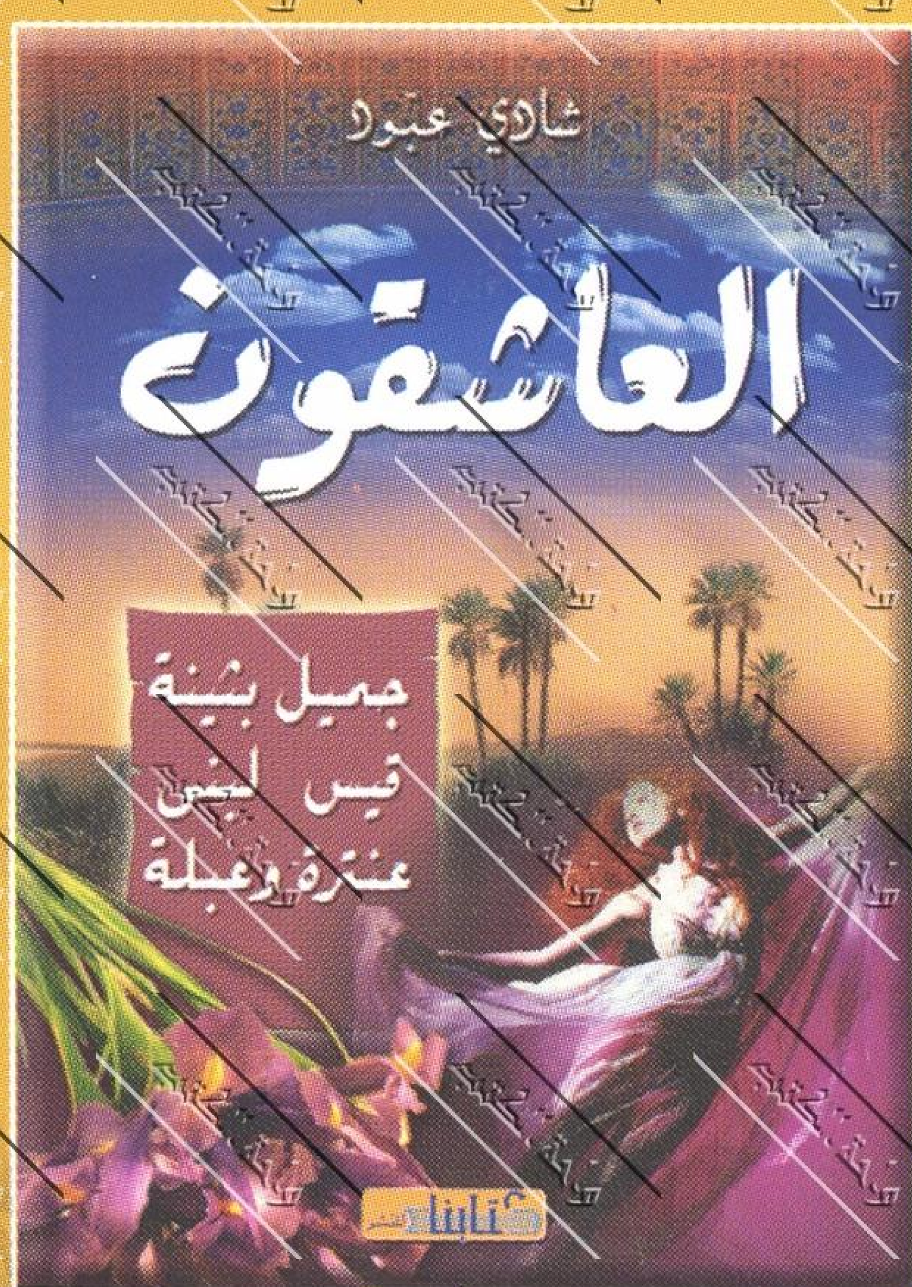
العاشقون

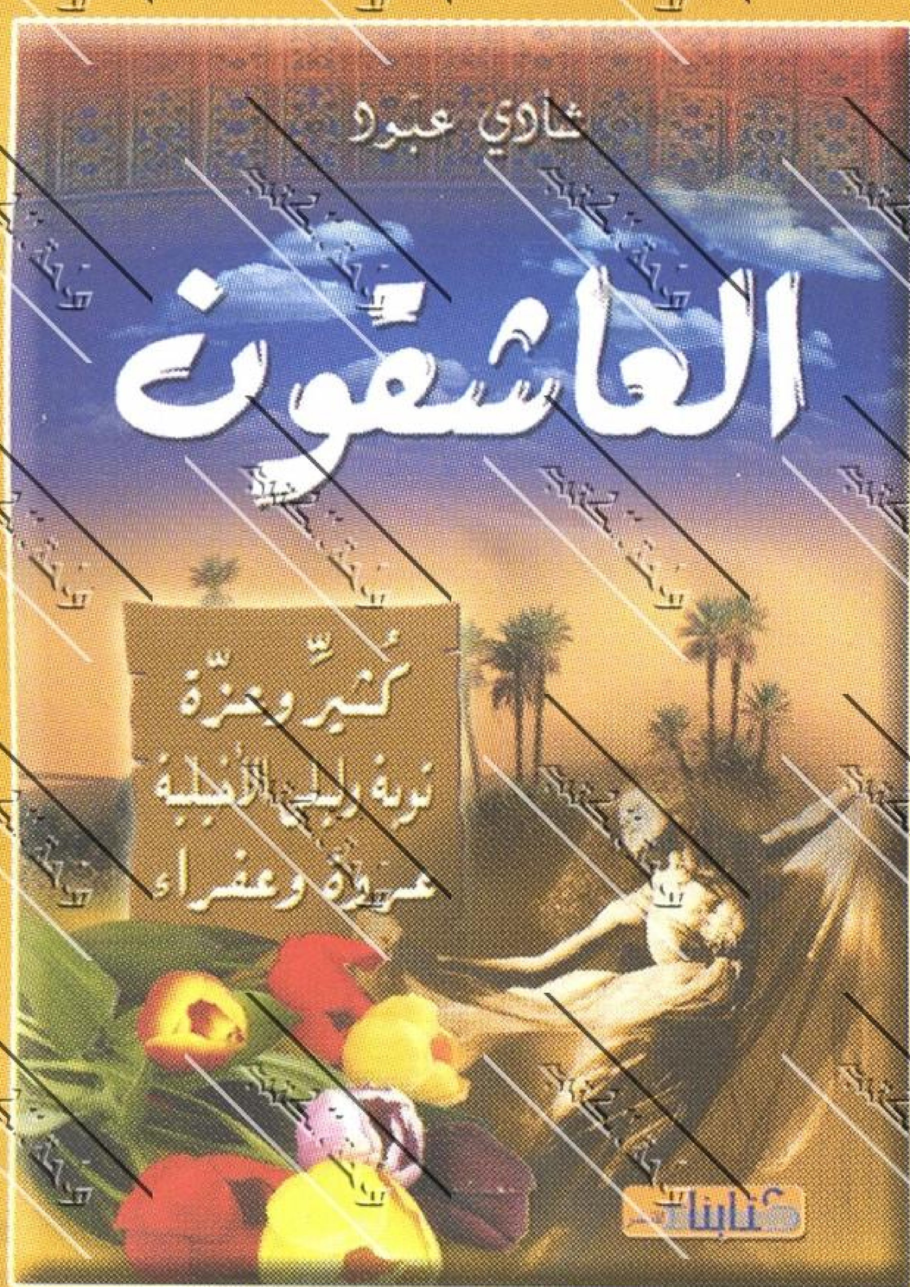
كُثيِّر وعزَّة
توبة وليلى الأخيلية
عروة وعفراء





Tuse
20/5/2014





كتابنا للنشر

«العاشقون»

كُثيِّــر وعــزَّة

و

توبة وليلى الأخيلية

و

عــروة وعفــراء

مقدمة

تتضمَّن هذه السلسلة بأجزائها الأربعة، أخبار العشّاق العرب، وخاصَّةً قصص حبّهم، وما حُكي من أخبار مع حبيباتهم، كما تتضمَّن أجمل أشعارهم الغزليّة، سواء كانت هذه الأشعار من ضمن سياق أخبارهم، أو مُسْتقاة من دواوينهم الشعريّة، وقد تضمَّنت أخبار العاشقين التالية أسماؤهم:

1- الجزء الأول: مجنون ليلى، والمرقش الأكبر وأسماء، والمرقش الأصغر وفاطمة بنت المنذر.

2- الجزء الثاني: جميل بثينة، وقيس ولبنى، وعنترة وعبلة.

3- الجزء الثالث: كُثيِّر وعزَّة، وتوبة وليلى الأخيلية، وعروة وعفراء.

4- الجزء الرابع: عمر بن أبي ربيعة وعشيقاته، وعليا وعصام،

ومضاض ومي، وقصص أخرى.

وقد اخترنا الأخبار والأشعار اختيارًا، بحيث لا يخدش أيّ منهما الحياء، ولا يُسيء إلى الأخلاق، بل يُظرِف، ويُسَلِّي، ويُمْتِع، ويُطلعنا على أخبار العشق وأشعاره في تاريخنا العربي، ويُمْتع أذواقنا الأدبيّة بما سنثبته من أشعار غزليّة رائعة.

آمل أن تُعْجب هذه السلسلة أذواق القرّاء العرب، وأن يمضوا في قراءتها أوقاتًا لذيذة ومسلّية.

المؤلّف

كمْ قَدْ ذَكرْتُكِ لو أُجْزى بذِكْرِكُمُ
يا أَشْبَهَ النّاسِ كُلِّ الناسِ بالقَمرِ

كثيّر عزّة



كُثَيِّر عَزَّة

(...- 105هـ/ 723م)

كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر. شاعر، متيَّم مشهور. من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك بن مروان، فازدرى منظره، ولما عرف أدبه، رفع مجلسه، فاختص به وببني مروان، يعظّمونه ويكرمونه. وكان مُفرِط القِصَر دميمًا، في نفسه شَمَم وتَرَفُّع. يقال له «ابن أبي جمعة»، و«كُثَيِّر عزّة»، و«الملحي» نسبةً إلى بني مليح، وهم قبيلته. قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يُقدِّمون عليه أحدًا. وفي المؤرخين مَنْ يذكر أنه من غُلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، قيل: كان يرى أنه «يونس بن متى».

أخباره مع عَزَّة الضَمريّة كثيرة. وكان عفيفًا في حبه. قيل له: هل نلت من عزة شيئًا طول مدتك؟ فقال: لا والله، وإنما كنت إذا اشتد بي الأمر، أخذت يدها، فإذا وضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة. توفي بالمدينة. له «ديوان شعر»، وللزبير بن بكار «أخبار كُثَيِّر»[1].

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 5/ 219.

من أخباره

أوَّل لقائه بعزَّة[1]

كان أوّل عشق كُثيِّر عَزّةَ أن كُثيِّرًا مرّ بنسوة من بني ضَمْرة ومعه جلبُ[2] غنمٍ، فأرسَلْنَ إليه عزّة، وهي صغيرة؛ فقالت: تقول لك النسوة: بِعْنا كَبْشًا من الغنم، وأنسِئنا[3] بثمَنه إلى أن ترجع؛ فأعطاها كبشًا، وأعجبته. فلما رجع، جاءته امرأة منهنّ بدراهمه؛ فقال: وأين الصبيّة التي أخذت منّي الكبش؟

قالت: وما تصنع بها! هذه دراهمك.

قال: لا آخذ دراهمي إلا ممّن دفعتُ الكبش إليها. وخرج وهو يقول:

قَضى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَه
وعزّةُ مَمْطولٌ مُعَنًّى غريمُها[4]

قال: فكان أوّلَ لقائه إياها.

(1) الأغاني 9/ 33.

(2) الجَلَبُ: ما جُلب من خيل وإبل ومتاع.

(3) نسأ الشيء نسأً: أخّره. ونسأه البيع وفي البيع: باعه وأخّر له دفع الثمن.

(4) الغريم: الدائن. ومطل الدين: سوّفه. نقول: مطله حقّه: أي سوّفه بوعد الوفاء مرّة بعد الأخرى. والمعنّى: المُعذّب. الغريم: الحبيب.

وقيل: إنّ أوّل علاقته بعزّة أنه خرج من منزله يسوقُ قطيع غنمٍ إلى الجار[1]؛ فلما كان بالخَبْت[2] وقف على نسوةٍ من بني ضَمْرة، فسألهنّ عن الماء، فقلن لعزّة وهي جارية حين كَعَب[3] ثدياها: أرشديه إلى الماء، فأرشدتْه وأعجبتْه. فبينا هو يسقي غنمَه إذ جاءته عزّة بدارهم، فقالت: تقول لك النسوةُ: بِعْنا بهذه الدراهم كبشًا من ضَأْنك، فأمر الغلامَ فدفع إليها كبشًا، وقال: رُدّي الدراهم، وقولي لهنّ: إذا رحتُ بكنّ اقتضيتُ حقّي.

فلما راح، مرّ بهنّ؛ فقلن له: هذا حقُّك فخذه.

فقال: عَزَّةُ غريمي[4]، ولستُ أقتضي حقّي إلاّ منها. فمزَحن معه وقُلْنَ: ويحك! عزَّة جارية صغيرة، وليس فيها وفاء لِحَقِّك، فأحِلْه على إحدانا، فإنها أملأُ به منها وأسرع له أداءً.

فقال: ما أنا بمُحيلٍ حقّي عنها. ومضى لوجهه، ثمّ رجع إليهنّ حين فرغ من بيع جَلَبِه، فأنشدهنّ فيها:

نظرتُ إليها نظرةً وَهْيَ عاتِقٌ
على حِينِ أن شَبَّتْ وبان نُهودها[5]

---

(1) الجارُ: مدينة على ساحل بحر القلزم.

(2) خَبْتٌ: سهل في الحرّة، وهي صحراء بين مكة والمدينة.

(3) كعبت الجارية: نَهَدَ ثديها. وكَعَبَ الثدي: نَهَدَ، أي برز وتكوّر.

(4) غريمي: التي استدانتْ منّي.

(5) جارية عاتق: شابة. والعاتق: البكر التي لم تبن عن أهلها. (اللسان مادة عتق ج1 ص 235).

وقـد دَرَّعـوهـا[1] وَهْـيَ ذاتُ مُـؤَصَّـدٍ
مَجُـوبٍ ولـمّـا يَـلْـبَسِ الـدِّرْعَ رِيـدُهـا[2]
مـن الـخَـفِـراتِ الـبِـيـضِ وَدَّ جَـلـيـسُـهـا
إذا مـا انـقَـضَـتْ أُحْـدوثـةٌ لَـوْ تُـعـيـدُهـا

فقلن له: أبيتَ إلاّ عزَّةَ! وأبرَزْنَها إليه وهي كارهة. ثمّ أحبّته عزّة بعد ذلك أشدّ من حبِّه إياها.

* * *

(1) درَّعوها: ألبسوها الدّرع. ودرعُ المرأة: قميصها، وهو أيضاً الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها. المؤصد: صدار تلبسه الفتاة الصغيرة، فإذا أدركت درّعت. المجوب: الذي جعل له جيب. الرّيد: الترب والندّ. والأصل فيه «الرئد» بالهمز.

(2) الأغاني 9/ 35.

عزَّة وعبد الملك بن مروان(1)

دخلتْ عزّة على عبد الملك بن مَرْوان وقد عجَّزتْ؛ فقال لها: أنتِ عزّة كُثَيِّر!

فقالت: أنا عزّة بنت حُمَيْل.

قال: أنت التي يقول لك كُثَيِّر:

لِـعَـزَّةَ نـارٌ مـا تَـبُـوخُ كَـأَنَّـهـا
إذا مـا رَمَـقْـنـاهـا مـن الـبُـعْـدِ كـوكـبُ(2)

فما الذي أعجبه منك؟

قالت: كلاَّ يا أمير المؤمنين! فوالله لقد كنتُ في عهده أحْسَنَ من النار في الليلة القَرّة(3).

وقيل: قالت له: أعجبه منّي ما أعجب المسلمين منك حين صيَّروكَ خليفةً.

قال: وكانت له سِنٌّ سوداء يخفيها؛ فضحك حتى بدت.

---

(1) الأغاني 9/ 35.

(2) تبوخ: تسكن وتهدأ، أي تنطفئ. رمقناها: نظرنا إليها.

(3) القرّة: الشديد البرد.

فقالت له: هذا الذي أردتُ أن أبديه. فقال لها: هل تروين قول كثيِّر فيك:

وقد زَعَمَتْ أنِّي تغيَّرتُ بعدَها
ومَنْ ذا الّذي يا عَزُّ لا يَتَغَيَّرُ؟
تَغَيَّرَ جسْمي والخليقةُ كالّتي
عَهِدْتِ ولم يُخْبِرْ بسِرِّكِ مُخْبَرُ

قالت: لا، ولكني أروي قوله:

كأنّي أنادِي صَخْرَةً حِينَ أعْرَضَتْ
من الصُّمِّ لو تَمْشِي بها العُصْمُ زلّتِ[1]
صَفُوحًا فَمَا تَلْقَاكَ إلّا بخيلَةً
فَمَنْ مَلَّ منها ذَلك الوَصلَ ملّتِ[2]

* * *

(1) العُصْم: جمع عصماء. والأعصم من الظباء: ما في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أحمر أو أسود.

(2) صفوحاً: معرضة صادّة.

عزَّة وعاتكة بنت يزيد أو أم البنين[1]

وقيل: فأمر، بها فأُدخلت على عاتكة بنت يزيد، وقيل: إنها أُدخلتْ على أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان. فقالت لها: أرأيتِ قولَ كُثيِّر:

قَـضـى كـلُّ ذي دَيْـنٍ فَـوَفَّـى غَـريـمَـهُ
وعَـزَّةُ مَـمْـطـولٌ مُـعَـنًّـى غَـريـمُـهـا

ما هذا الذي ذَكَره؟

قالت: قبلةٌ وعدتُه إياها.

قالت: أنجزيها، وعليَّ إثمّها.

* * *

(1) الأغاني 9/ 36.

عزَّة وغلام كُثَيِّر (1)

روي أنّ كثيِّرًا كان له غلام تاجر، فاشترت منه عَزّة بعض سِلَعه، ومَطَلته[2] مُدّةً وهو لا يعرفها. فقال لها يومًا: أنتِ واللّه كما قال مولاي:

قَضى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَريمَه
وعَزَّةُ مَمْطولٌ معنًّى غَريمُها

فانصرفت عنه خَجِلة. فقالت له امرأة: أتعرف عزّة؟

قال: لا واللّه!.

قالت: فهذه ، واللّه عزّة.

فقال: واللّه لا آخذ منها شيئًا أبدًا، ولا أقتضيها. ورجع إلى كثيِّر، فأخبره بذلك، فأعتقه، ووهَب له المال الذي كان في يده.

* * *

(1) الأغاني 9/ 36.

(2) مطلته مدة: أي سوّفته بوعد الوفاء مرّة بعد الأخرى.

عزَّة وجَمَل كُثيِّر

خرجت عَزَّةُ يومًا مَعَ زوجها إلى مكَّة. واتَّفق أَنْ مَرَّتْ في أثناء الطريق بجمل له، فسلَّمت على الجمّال، فعرف كُثيِّر بالأمر، فجاء إلى الجمل، فحلَّه، وأطلقه من الحملِ، وأنْشد:

حَيَّتْكَ عزَّةُ بَعْدَ الهجْرِ وانْصَرَفَتْ
فَحيِّ وَيْحَكَ مَنْ حَيَّاكَ يا جَمَلُ
ليتَ التَّحِيَّةَ كَانَتْ لي فأشْكُرَهَا
مَكَانَ يا جَمَلٌ حُيِّيتَ يا رجلُ

* * *

كثيِّر وعبد الملك بن مروان(1)

سألَ عبدُ الملك بنُ مروان كثيِّرًا عن أعجب خبر له مع عزّة؛ فقال:

حَجَجْتُ سنةً من السنين وحجّ زوجُ عزّةَ بها، ولم يعلم أحد منا بصاحبه. فلما كنّا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياع سمن تُصلح بها طعامًا لأهل رفقته؛ فجعلتْ تدور الخيامَ خيمةً خيمة حتى دخلت إليّ، وهي لا تعلم أنها خيمتي، وكنت أبري أسهمًا لي.

فلما رأيتها، جَعَلتُ أبري وأنا أنظر إليها، ولا أعلم حتى بريت عظامي مراتٍ، ولا أشعر به والدم يجري. فلما تبيَّنَتْ ذلك، دخلَتْ إليَّ فأمسكت يدي، وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها؛ وكان عندي نِحْي(2) من سَمْن، فحلَفْتُ لتأخُذَنّه، فأخذَتْه وجاءت إلى زوجها بالسَّمن. فلما رأى الدمَ، سألها عن خبره، فكاتَمَته(3)، حتى حلف لتصدقنّه، فصَدَقته؛ فضربها وحَلفَ لتشتمنّي في وجهي. فوقفت عليّ، وهو معها، فقالت لي: يا ابن الزانية، وهي تبكي، ثمّ انصرفا. فأنشدت:

خـلـيـلـيَّ هـذا رَبْـعُ عَـزَّةَ فـاعـقِـلا
قَـلُـوصَـيْـكـما ثـمَّ ابـكِـيَـا حَـيْـثُ حَـلَّـتِ(4)

---

(1) الأغاني 9/ 37.

(2) النّحي: الزقّ، إناء السَّمن.

(3) كاتمته: سترتْ عنه السِّرَّ.

(4) الخليلان: الصديقان، المرافقان. ربع: دار. اعقلا، اربطا. القلوص: الناقة الشابّة. =

ومُـسًّـا تـرابًـا كـانَ قَـدْ مَـسَّ جِـلـدَهـا

وبَـيـتًـا وَظِـلًّا حَـيْـثُ بـاتـتْ وظَـلَّـتِ[1]

ولا تَـيْـأسـا أنْ يَـمْـحُـوَ الله عـنـكُـمـا

ذُنـوبًـا إذا صَـلَّـيْـتـمـا حَـيْـثُ صَـلَّـتِ[2]

* * *

= حلّت: سكنت، استقرت.

(1) بات: قضى الليل. ظلّ: قضى النّهار.

(2) انظر القصيدة بكاملها بعد صفحات.

عِتاب المُحبّين[1]

حدَّث سائب، راوية كُثيِّر، فقال:

خرجتُ معه نريد مصر، فمررنا بالماء الذي فيه عزّة فإذا هي في خِباء[2]، فسلَّمنا جميعًا؛ فقالت عزّة: وعليكَ السلام يا سائِبُ. ثمّ أقبلتْ على كثيِّر فقالت: ويحك! ألاَ تتَّقي اللّه! أرأيتَ قولك:

بِــآيــةِ مــا أَتَــيْــتُــكِ أُمَّ عَــمْــرٍو
فَـقُـمْـتِ لـحـاجـتـي والـبَـيْـتُ خـالـي

أَخَلَوْتُ معك في بيتٍ، أو غير بيت قطُّ؟

قال: لم أقُلْه، ولكنني قلتُ:

فَــأُقْــسِــمُ لَــوْ أَتَــيْــتُ الــبَـحْـرَ يــومًــا
لِأَشْــرِبَ مــا سَــقَــتْــنِــي مــن بِــلالِ[3]

وأُقْــسِــمُ انّ حُــبَّــكِ أُمَّ عَــمْــرٍو
لَــداءٌ عِــنْــدَ مُــنْــقَــطَــعِ الــسُّــعــالِ[4]

قالت: أمّا هذا، فَنَعَمْ.

---

(1) الأغاني 9/ 42.
(2) الخباء: الخيمة.
(3) البلال: ما يبلّ العطش.
(4) منقطع السُّعال: الصدر.

كثيّر يعشق امرأةً من خُزاعة[1]

حدّث إبراهيم بن المهديّ قال:

قدِم عليَّ هشامُ بن محمَّد الكلبيّ، فسألته عن العشّاق يومًا، فحدّثني قال: تعشَّق كثيِّر امرأةً من خُزَاعة يقال لها أُمّ الحُوَيْرث، فنسَب بها[2]، وكَرِهتْ أن يُسَمِّع بها ويفضَحها كما سمَّعَ بعزّة[3]؛ فقالت له: إنك رجلٌ فقير لا مالَ لك؛ فابتغِ مالًا يُعَفِّي عليك[4] ثمّ تعالَ فاخطُبْني، كما يخطُب الكرام.

قال: فاحلفي لي ووَثِّقي أنّك لا تتزوّجين حتى أُقدمَ عليك؛ فحلفتْ ووثَقت له. فمدح عبدَ الرحمن بن إبريق الأزديّ، فخرج إليه، فلقيَتْه ظِباءٌ سوانح، ولقيَ غرابًا يفحَص الترابَ بوَجْهه؛ فتطيَّرَ من ذلك حتى قدِم على حيٍّ من لِهْب[5] فقال: أيُّكم يَزْجُر؟

فقالوا: كلُّنا، فَمنْ تريد؟ قال: أعْلِمُكُمْ بذاك.

قالوا: ذاك الشيخ المنحني الصُّلْب. فأتاه فقصّ عليه القصة؛ فكره ذلك له وقال له: قد تُوُفِّيتْ أو تَزَوَّجَتْ رجلًا من بني عمّها.

(1) الأغاني 9/ 43.

(2) أي: تغزَّل بها.

(3) أي: كما شهَّرَ بها.

(4) أي: يُغنيك.

(5) لِهب: قبيلة من اليمن معروفة بالعيافة وزجر الطير.

فأنشأ يقول:

تَيَمَّمْتُ لَهْبًا أبتغي العِلْم عِنْدَهُمْ
وقد رُدَّ عِلْمُ العَائفينَ إلى لَهْبِ[1]
تَيَمَّمْتُ شيخًا منهُمُ ذا بَجَالةٍ
بصيرًا بزَجْرِ الطَّيرِ مُنحنيَ الصُّلْبِ[2]
فقُلتُ لهُ: ماذا تَرى في سَوَانِحٍ
وَصَوتِ غُرابٍ يفحَصُ الوَجْهَ بالتُّرْبِ
فَقَالَ: جَرَى الظَّبيُ السَّنيحُ ببيْنِها
وقال غُرابٌ: جَدَّ مُنهمِرُ السَّكْبِ[3]
فإلَّا تَكُنْ ماتَتْ فَقَد حَالَ دُونَهَا
سِوَاكَ خَليلٌ باطنٌ من بَني كعبِ[4]

قال: فمدح الرجلَ الأزديّ، ثمّ أتاه، فأصاب منه خيرًا كثيرًا، ثمّ قدم عليها، فوجَدَها قد تزوّجت رجلًا من بني كعب، فأخذه الهُلاس[5]، فكُشِح[6] جَنْباه بالنار. فلما اندمَل[7] من عِلّته، وضع يده على ظهره فإذا هو بَرقْمتين[8]، فقال: ما هذا؟

---

(1) العيافة: زَجْر الطير والتفاؤل أو التشاؤم بطيرانها. وهو من عادة العرب.

(2) ذو بجالة: ذو تعظيم.

(3) بينها: فراقها.

(4) أي: تزوّجت رجلاً من بني كعب.

(5) الهُلاس: داء شبه السلال.

(6) كُشِح: كُوِي.

(7) اندمل: شُفي.

(8) رقمتان: أثران لكيّ.

قالوا: إنه أخذك الهُلاَس، وزعم الأطبّاء أنه لا عِلاجَ لك إلا الكَشْح بالنار، فكُشِحْتَ بالنار.

فأنشأ يقول:

عَـفَـا اللهُ عَـنْ أُمّ الـحـويـرِثِ ذَنْـبَـهـا
عَـلاَمَ تُـعـنّـيـنـي وتَـكْـمِـي دَوَائِـيـا[1]
فَـلَـو آذَنُـونـي قَـبْـل أَنْ يَـرْقُـمُـوا بـهـا
لـقُـلـتُ لـهُـمْ أُمُّ الـحُـوَيْـرِثِ دائـيـا

* * *

(1) تكمي: تستر.

على قبر عَزَّة[1]

أخبر حمَّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

خرج كُثيِّر يريد عبد العزيز بن مروان، ورفع منزلته وأحسن جائزته. وقال: سَلْني ما شِئتَ من الحوائج!

قال: نعم، أُحِبُّ أن تنظر لي من يعرف قبر عَزَّة، فيوقفني عليه.

فقال رجل من القوم: إنِّي لعارف به. فوثب كُثَيِّر، فقال لعبد العزيز: هي حاجتي أصلَحكَ الله. فانطلق به الرجل حتى انتهى إلى موضعِ قبرها، فوضع يده عليه، ودمعُه يجري، وهو يقول:

وَقَـفْـتُ عـلـى رَبْـعٍ لـعَـزَّةَ نـاقَـتِـي
وفـي الـبُـردِ رشّـاشٌ مـنَ الـدَّمْـعِ يُـسْـفَـحُ[2]

فـيـا عَـزَّ أنـتِ الـبَـدْرُ قـدْ حـالَ دونَـهُ
رَجيعُ التُّرابِ والـصَّـفـيحُ[3] الـمضـرَّحُ[4]

(1) مصارع العشاق 1/ 126 -127.

(2) الربع: الدار. البرد: الثوب. يُسفح: يُهرق.

(3) الصفيح: الحجارة العريضة التي توضع على القبر.

(4) المضرَّح: أراد المبني ضريحاً، قبراً.

وَقـدْ كُـنْـتُ أَبْـكِـي مِـنْ فـراقِـكِ حـيَّـةً[1]
فـأنـتِ لَـعَـمْـرِي الـيـومَ أَنْـأَى وأَنْـزَحُ
فـإنَّ الّـتـي أَحْـبَـبْـتُ قَـد حـالَ دونَـهـا
طَـوالُ الـلّـيـالِـي والـضَّـريـحُ الـمُـصَـفَّـحُ[2]
أَرَبَّ بِـعَـيْـنَـيَّ الـبُـكـا كـلَّ لـيـلـةٍ!
فَـقـدْ كـادَ مـجـرَى دمـعِ عـيـنِـي يَـقْـرَحُ[3]
إذا لَـمْ يَـكُـنْ مـاءٌ تَـحَـلَّـبَـتـا دمًـا،
وشَـرُّ الـبُـكـاءِ الـمُـسْـتَـعـادُ الـمُـمـنَّـحُ[4]

* * *

(1) أي: وأنت حيّة.

(2) الضريح: القبر. المُصَفَّح: الذي عليه الحجارة.

(3) أَرَبَّ: لزمَ وأقامَ. يقرح: تصبح به قروح، أي جروح.

(4) الممنَّح: غير المتقطع.

الحُبّ العفيف[1]

روى أبو عمرو الجهنيّ عن أبيه قال:

سارت علينا عزّة في جماعة من قومها، فنزلتْ حِيَالَنا. فجاءني كثيِّر ذات يوم فقال لي: أُريد أن أكون عندك اليوم فأذهبَ إلى عزّة؛ فصرتُ به إلى منزلي. فأقام عندي حتى كان العِشاء، ثمّ أرسلني إليها، وأعطاني خاتَمه وقال: إذا سلَّمتَ فستَخْرُج إليك جارية، فادفع إليها خاتَمي وأعلِمْها مكاني. فجئت بيتها فسلّمتُ فخرجتْ إليّ الجارية فأعطيتها الخاتَم.

فقالت: أين الموعد؟

قلت: صَخَراتُ أبي عُبَيْد الليلة، فواعدتها هناك؛ فرجعتُ إليه فأعلمتهُ. فلما أمسى قال لي: انْهَضَ بنا؛ فنهضْنا، فجلسنا هناك نتحدّث حتى جاءت من الليل، فجلستْ، فتحدّثا، فأطالا، فذهبت لأقوم. فقال لي: إلى أين تذهب؟

فقلت: أُخَلِّيكما ساعةً لعلّكما تتحدّثان ببعض ما تكتُمان.

فقال لي: اجلسْ! فوالله، ما كان بيننا شيء قطُّ. فجلستُ وهما يتحدّثان وإنّ بينهما لَثمَامةً[2] عظيمة هي من ورائها جالسة حتى أسحَرْنا، ثمّ قامت فانصرفت، وقمت أنا وهو؛ فظلّ عندي حتى أمسى ثمّ انطلق.

---

(1) الأغاني 9/ 40.

(2) الثّمامة: واحد الثّمام، وهو نوع من الأشجار.

كُثَيِّر الخائن[1]

أرادتْ عزّةُ أن تعرِفَ ما لها عند كُثَيِّر فتَنَكَّرَتْ له، وقامَتْ بهِ متَعَرِّضَةً، فقامَ فاتَّبعها، فكلّمَها، فقالَت له: فأينَ حُبُّكَ عزَّةَ؟ فقال: أنا الفِداءُ لكِ، لوْ أن عَزَّةَ أمَةٌ لي لَوَهبتُها لكِ. قالَتْ: ويحَكَ! لا تَفعَل، فقَد بلَغَني أنها لَكَ في صدقِ المودّة، ومحضِ المحبَّةِ والهَوَى على حَسَبِ الذي كنتَ تُبدي لها من ذلكَ وأكثر، وبعدُ، فأينَ قولكَ:

إذا وَصَلَتْنا خِلَّةٌ كَي نُزيلَها
أبَينا، وقُلنا: الحاجِبِيَّةُ أوّلُ

فقال كُثَيِّر: بأبي أنتِ وأمّي! أقصِري عن ذكرِها، واسمعي ما أقولُ، ثمّ قال:

ما وصْلُ عَزَّةَ إلّا وَصْلُ غانيَةٍ
في وَصْلِ غانيةٍ مِنْ وَصلِها خَلَفُ

ثمّ قال: هلْ لكِ في المُخالّة[2]؟ فقالَتْ له: كيفَ بما قلتَ في عَزّة وَسَيَّرْتَه لها؟ فقالَ: أقْلُبُهُ فيتَحوّلُ إلَيك، ويصيرُ لك. قال: فسَفَرَتْ عن وجهِها، عند ذلك، وقالتْ: أغدرًا وانتِكاثًا يا فاسِق؟ وإنَّك لهاهُنا، يا عدوّ اللهّ فبُهِتَ وتحَيَّر ولم يَنطِق، وتحَيّر وخَجِلَ، ثمّ إنّها عرّفته أمرَها ونكثَهُ وغدرَهُ بها،

(1) مصارع العشاق 1/ 88-89.

(2) المخالة: الصداقة.

وأعلَمَتهُ سوءَ فِعالِه، وقلّةَ حِفاظِه، ونقضَه للعَهد والمِيثاق، ثمّ قالت: قاتلَ اللّهُ جميلًا حيثُ يقول:

لَحَى اللّهُ مَنْ لا يَنفَعُ الودُّ عِندَهُ،
ومَن حَبلُهُ إنْ مُدَّ غَيرُ مَتينِ

وَمَنْ هوَ ذو وَجهَينِ ليسَ بِدائمٍ
عَلى العَهْدِ حلّافٌ بِكُلّ يَمينِ

قال: فأنشأ كُثيِّر يقولُ بانخزالٍ وحصر وانكِسار، يتعذرُ إليها، ويتَنَصَّل ممّا كانَ مِنهُ، ويحتالُ في دفعِ زَلَّتِه، مُتَمثّلًا بقَوْلِ جميل، ويُقال: بل سَرَقَهُ من جميل وانتحله لنفسه فقال:

ألا لَيتنِي قَبلَ الّذي قُلتُ: شِيبَ لي
مِنَ المُذعِفِ القاضي سِمامُ الذّرارحِ(1)

فَمُتّ ولَمْ تَعلَمْ عليّ خِيانَةً،
ألا رُبَّ باغي الرِّبْحِ لَيْسَ بِرابِحِ

فَلا تَحمِليها واجْعلِيها خِيانَةً،
تَرَوَّحتُ مِنها في مَياحةِ مائِحِ(2)

أبوءُ بِذَنبي أنّني قَدْ ظَلَمْتُها،
وإنّي بِباقي سِرِّها غيرُ بائِحِ(3)

(1) شيب: مُزج وخلط. المذعف: القاتل بسرعة. القاضي: القاتل. سمام: جمع سم. الذرارح: نوع من السُّموم.

(2) مياحة: شفاعة. مائح: شافع.

(3) أبوء: أعترف، أُقِرّ

في دَفْنِ كُثيِّر[1]

حَدَّثَ خالد بن القاسم البَياضيّ قال: مات عِكْرِمةُ مولى ابن عبّاس وكثيِّر بن عبد الرحمن الخُزاعيّ صاحبُ عزّة في يوم واحد في سنة خمس ومائة، فرأيتُهما جميعًا صُلِّي عليهما في يوم واحد بعد الظهر في موضع الجنائز، فقال الناس: مات اليومَ أفقهُ الناس، وأشعرُ الناس.

وقال المفضَّل بن فضالة: مات عكرمة وكثيِّر عَزّة في يوم واحد، فأُخرِجت جنازتاهما، فما علمتُ تخلَّفتِ امرأةٌ بالمدينة ولا رجلٌ عن جنازتيهما. قال: وقيل: مات اليوم أشعر الناس، وأعلمُ الناس. قال: وغلب النساء على جنازة كثيِّر يَبْكينَه، ويذكُرْنَ عزّة في نُدْبتهنَّ له. قال: فقال أبو جعفر محمَّد بن عليّ: افرجوا لي عن جنازة كثيِّر لأرفَعها.

قال: فجعلنا ندفع عنها النساء، وجعل يضربهنّ محمَّد بن عليّ بكُمِّه، ويقول: تَنَحَّيْنَ يا صَوَاحِباتِ يوسف. فانتدَبْت له امرأةٌ منهنّ فقالت: يا ابنَ رسول اللّه، قد صَدَقتَ، إنّا لصواحباتُ يوسف، وقد كنّا له خيرًا منكم له.

قال: فقال أبو جعفر لبعض مَواليه: احْتفِظْ بها حتى تجيئني بها إذا انصرفْنا.

قال: فلما انصرفَ، أُتِيَ بتلك المرأة كأنها شَرَارةُ النار. فقال لها

---

(1) الأغاني 9/ 47.

محمَّد بن عليّ: أنتِ القائلةُ: إنّكن ليوسف خيرٌ منّا؟

قالت: نعم! تُؤمِنني غضبَك يا ابن رسول اللَّه؟

قال: أنت آمنةٌ من غضبي، فأبيني.

قالت: نحن يا ابنَ رسول اللَّه دعوناه إلى اللذّات من المَطْعَم والمَشْرَب والتمتُّع والتنعُّم، وأنتم، معاشِرَ الرجال، ألقيتُموه في الجُبّ وبعتُموه بأبخس الأثمّان وحَبَسْتموه في السِّجن. فأيُّنا كان عليه أحنَى وبه أرْأف؟!

فقال محمَّد: للّه دَرُّكِ! ولن تُغَالَبَ امرأةٌ إلاَّ غَلبتْ. ثمّ قال لها: أَلَكِ بعلٌ؟

قالت: لي من الرجال مَنْ أنا بعلُه. قال: فقال أبو جعفر: صَدَقتِ، مثلُكِ مَنْ تملكُ بعلَها ولا يملكها.

قال: فلما انصرفتْ قال رجلٌ من القوم: هذه زينت بنت مُعَيْقِب.

* * *

أَعشقُ من كثيِّر عزَّة[1]

حَدَّث المفضَّل بن الحسن المخزومي قال:

دخَلَ كُثَيِّرُ عزَّةَ على عبد الملك بن مروان، فجعلَ يُنشده شعرَه في عَزّة، وعَيْناه تَذرفان، فقال له عبد الملك: قاتلك الله يا كثيِّر! هل رَأيتَ أحدًا أعشَقَ منك؟ قال: نعم يا أميرَ المؤمنين، خرَجتُ مرَّةً أسيرُ في البادية على بعيرٍ لي، فبينا أنا أسيرُ إذ رُفعَ إليّ شخصٌ، فأمَمتُه، فإذا رَجلٌ قد نصَبَ شركًا للظّباء، وقعدَ بعيدًا منه، فسلّمتُ عليه، فرَدّ السلام، فقلت: ما أجلسك ها هنا؟ قال: نصَبتُ شركًا للظباء، فأنا أرصُدُها. قلت: إن قمتُ لَه لدَيك فصِدتَ أتُطعِمُني؟ قال: إي واللّه.

قال: فنزلتُ فعقلتُ ناقَتي، وجَلستُ أحدّثه فإذا هوَ أحسنُ خلقِ الله حديثًا، وأرَقّه، وأغزَلَه. قال: فما لبثنا أن وقَعَت ظبيةٌ في الشَّرَكِ، فوَثَبَ وَوثَبتُ معه فخلَّصها من الحِبال، ثمّ نظرَ في وَجهها مليًّا، ثمّ أطلقها، وأنشأ يقول:

أيـا شِـبْـهَ لـيـلـى لـنْ تُـراعِـي فـإنّـنـي
لـكِ الـيـومَ مِـنْ بـيـن الـوحـوشِ صـديـقُ
ويـا شِـبْـهَ لـيـلـى لـن تَـزَالـي بـرَوْضـةٍ
عـلـيـكِ سَـحـابٌ دائـمٌ وبُـروقُ

---

(1) مصارع العشاق 2/ 62 ـ 64.

فما أنا - إذ شَبَّهتُها ثُمَّ لَمْ تَؤُبْ
سليمًا - عليها في الحياة شفيقُ
فَديتُكِ من أسرِ دَهاكِ لحُبِّها،
فأنتِ لِلَيلى ما حَييتِ طَليقُ

ثمّ أصلَحَ شرَكَه، وعَدَونا إلى مَوضِعنا، فقلت: واللَّه لا أبرَحُ حتى أعرِفَ أمرَ هذا الرّجل. فأقمنا باقي يومنا فلم يقع شيء، فلمّا أمسينا قام إلى غارٍ قريبٍ من الموضع الذي كنّا فيه وقمتُ معه فبِتنا به، فلمّا أصبحَ غدا فنَصَبَ شركه، فلم يلبث أن وَقعت ظبيةٌ شبيهةٌ بأختها بالأمس، فوثَبَ إليها ووَثبتُ معه، فاستخرَجها من الشَرك ونظرَ في وَجهها مليًا ثمّ أطلقها، فمرّت، وأنشأ يَقول:

اذهَبِي في كَلاءَةِ الرَّحْمَنِ،
أنتِ مِنّي في ذِمَّةٍ وأمانِ
تَرْهَبِيني؟ وَالجيدُ مِنكِ كَليلى،
وَالحشا وَالبُغامُ وَالعَينانِ
لا تَخافِي بأنْ تُفاجَيْ بِسُوءٍ
ما تَغَنّى الحَمامُ في الأغصانِ

ثمّ عُدنا إلى موضِعنا فلم يَقع يومَنا ذلك شيءٌ، فلما أمسينا صِرْنا إلى الغار، فبتنا فيه، فلمّا أصبحنا عدَّلَ إلى شركه، وغَدَوتُ معه، فنَصَبَه، وقَعَدنا نَتَحدَّثُ وقد شغلني، يا أميرَ المؤمنين، حُسنُ حديثه عمّا أنا فيه من الجوع، فبتنا نتحدّثُ إذ وقعت في الشرّك ظبيةٌ، فوَثَبَ إليها ووَثَبتُ معه، فاستخرَجها من الشّرك، ثمّ نظرَ في وَجهها وأرَادَ أن يُطلقَها فقبضتُ على يده وقلت: ماذا تُريدُ أن تَعمل؟ أقمتَ ثلاثًا كلّما صِدتَ شيئًا أطلَقتَه. قال: فنظرَ في وَجهي وَعَيناه تَذرفان وأنشأ يقول:

أتَلحَى مُحِبًّا هائمَ القلبِ أن رَأى
شَبيهًا لمَنْ يهواهُ في الحَبلِ مُوثَقا
فَلَمّا دَنا مِنهُ تَذَكَّرَ شَجوَهُ،
وَذَكَّرَهُ مَن قَدْ نَأى فتَشَوَّقا

قال أبو بكر: وبيتٌ آخرُ ذهبَ عليّ، فرَحمته والله، يا أميرَ المؤمنين، فبكيتُ لبكائه ونَسَبتُه، فإذا هوَ قيس بن مُعاذٍ المجنون، فذاكَ وَاللَّهِ أعشقُ مني يا أميرَ المؤمنين.

* * *

من أجمل أشعاره

. . .

خــلــيــلــيَّ هــذا ربْــعُ عَــزَّةَ فـاعــقِــلا
قَلُوصَيْكما ثمَّ ابكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ[1]

ومُــسّــا تــرابًــا كــانَ قَــدْ مَــسَّ جِــلــدهــا
وبَــيــتًــا وَظِــلاً حَــيْــثُ بــاتــتْ وظــلّــتِ

ولا تــيــأســا أنْ يَــمْــحُــوَ الله عــنــكُــمــا
ذنــوبًــا إذا صَــلَّــيْــتــمــا حَــيْــثُ صَــلَّــتِ

ومــا كُــنْــتُ أدري قَــبْــلَ عَــزَّةَ مــا الــبُــكــا
ولا مُــوجِــعَــاتِ الــقَــلــبِ حــتَّــى تَــوَلَّــتِ

وَكَــانَــتْ لِــقَــطْــعِ الــحــبــلِ بــيْــنــي وَبَــيْــنَــهــا
كــنــاذِرةٍ نَــذْرًا وَفَــتْ فــأحــلّــتِ[2]

فــقُــلْــتُ لــهــا: يــا عَــزُّ كُــلُّ مُــصــيــبــةٍ
إذا وُطِّــنَــتْ يــومًــا لــهــا الــنَّــفْــسُ ذلّــتِ[3]

تَــمَــنَّــيْــتُــهــا حَــتَّــى إذا مــا رَأَيْــتُــهــا
رَأَيْــتُ الــمَــنــايــا شُــرَّعًــا قــدْ أظــلَّــتِ

---

(1) ربع عزّة: دارها. اعقِلا: اربطا. القلوص: الناقة الشابّة.

(2) حلت: لم تفِ بعهدها.

(3) وطّن نفسه على الشيء: حملها عليه حتى تذلّل له وتخضع.

كـأنّـي أُنـادِي صَـخْـرَةً حِـيـنَ أعْـرَضَـتْ
من الصُّمِّ لو تَمْشِي بها العُصْمُ زلَّتِ[1]

أباحَتْ حِمًى لَمْ يَرْعَهُ النّاسُ قَبْلَها
وَحَلَّتْ تِلاعًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتِ

أُريدُ الثَّواءَ عِنْدَهَا وَأظُنُّها
إذا ما أطَلْنَا عِندَهَا المُكثَ ملَّتِ

يُكلِّفُهَا الغَيْرانُ شَتْمِي وَمَا بِهَا
هَوَاني ولكنْ لِلْمَلِيكِ استذلَّتِ[2]

وَكُنّا عَقَدنا عُقدةَ الوَصْلِ بيننا
فلمّا تَوَاثَقْنَا شَدَدتُ وَحَلَّتِ

أسيئي بِنا أو أحْسِني لا مَلُومَةً
لدينا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّتِ[3]

ولكنْ أنيلي واذكُري مِنْ مَوَدّةٍ
لنا خُلّةً كَانَتْ لَدَيكُمْ فطُلَّتِ[4]

فلا يَحْسَبِ الواشُونَ أنَّ صَبَابتي
بِعَزَّةَ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتِ[5]

---

(1) العصم: ج عصماء، والأعصم من الظباء: ما في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أحمر أو أسود.

(2) الغيران: زوج عزّة. المليك: المالك وهو زوج عزّة. استذلت: هانت وخضعت. وفي البيت إشارة إلى طلب زوج عزّة منها أن تشتمه.

(3) مقلية: مبغضة ومكروهة. تقلت: تبغضت.

(4) الخُلة: المحبة والصداقة. طُلّت: منعت وأهدرت.

(5) الغمرة: الشدّة. تجلّت: انفرجت.

وَحَلَّتْ بأعلَى شَاهِقٍ من فؤادِهِ
فلا القلبُ يَسْلاها ولا النَّفسُ مَلَّتِ[1]

فَوَا عَجَبًا للقلبِ كَيْفَ اعتِرافُهُ
وَلِلنَّفسِ لمّا وُطِّنت كَيْفَ ذَلَّتِ[2]

وإنّي وَتَهيامي بِعَزَّةَ بعدما
تَخَلّيتُ مِمّا بيننا وتَخَلَّتِ[3]

لكالمُرتجي ظِلَّ الغمامةِ كُلّما
تبوّأ مِنْهَا للمَقيلِ اضْمَحلَّتِ[4]

كأنّي وإيّاهَا سَحابةُ مُمحِلٍ
رَجَاها فلمّا جاوزَتْهُ استَهَلَّتِ[5]

* * *

(1) الشاهق: المرتفع. يسلاها: ينساها.

(2) اعترافه: اصطباره. ذلّت: خضعت وأطاعت.

(3) التهيام: شدة العشق. تخلّت: تركت.

(4) تبوأ المكان: أقام فيه. اضمحلت: ذهبت. المقيل: من يطلب القيلولة أي النوم نهاراً.

(5) مُمْحل: مجدب. استهلت: أمطرت.

نظرة

نَـظَـرْتُ إلـيـهـا نَـظْـرَةً وَهْـيَ عَـاتِـقٌ
علـى حِـيـنِ أنْ شَـبّـتْ وَبَـانَ نُـهُـودُهـا[1]

وَقَـدْ دَرَّعُـوهَـا وَهْـيَ ذَاتُ مُـؤَصَّـدٍ
مَـجُـوبٍ ولـمّـا يـلْـبَـسِ الـدِّرْعَ رِيـدُهـا

نـظَـرْتُ إلـيـهـا نَـظْـرةً مـا يَـسُـرُّنـي
بِـهـا حُـمْـرُ أنـعـامِ الـبِـلادِ وَسُـودُهـا

وَكُـنْـتُ إذا مـا زُرْتُ سُـعْـدى بـأرْضِـهَـا
أرَى الأرضَ تُـطـوى لـي ويَـدْنُـو بَـعِـيـدُهـا

مِـنَ الـخَـفِـراتِ الـبِـيـضِ وَدَّ جَـلِـيـسُـهَـا
إذا مـا انـقـضَـتْ أُحـدوثـةٌ لـوْ تُـعـيـدُهـا

مُـنَـعَّـمَـةٌ لـم تَـلْـقَ بُـؤسَ مَـعـيـشـةٍ
هي الـخُـلـدُ في الدُّنيا لِـمَـنْ يَـسْـتـفـيـدُهـا

فَـتِـلْـكَ الَّـتـي أصْـفـيـتُـهَـا بِـمَـوَدَّتـي
وَلـيـدًا ولـمّـا يَـسْـتـبِـنْ لـي نُـهـودُهـا

(1) العاتق: الفتاة أوّل إدراكها.

وَأَمْـنَـحُـهَـا أَقْـصَـى هَـوَايَ وإنَّـنـي
عَـلـى ثِـقَـةٍ مِـنْ أنَّ حَـظّـي صُـدودُهـا

فَـكَـيْـفَ يَـوَدُّ الـقَـلْـبُ مَـن لا يَـوَدُّهُ
بـلـى قـد تُـريـد الـنَّـفْـسُ مَـن لا يُـريـدُهـا
ألا لَـيْـتَ شِـعْـري بَـعْـدَنَـا هَـلْ تَـغَـيَّـرَتْ
عـنِ الـعَـهْـدِ أمْ أمْـسَـتْ كـعـهـدي عُـهـودُهـا
إذا ذَكَـرَتْـهَـا الـنَّـفْـسُ جُـنَّـتْ بِـذِكْـرِهَـا
وَرِيـعـتْ وَحَـنَّـتْ واسـتـخَـفَّ جَـلِـيـدُهـا
فـلَـوْ كَـانَ مَـا بِـي بِـالـجِـبَـالِ لـهَـدَّهـا
وإنْ كـانَ فـي الـدُّنـيـا شَـدِيـدًا هُـدُودُهـا
وَلَـسْـتُ وإنْ أُوعِـدتُ فـيـهـا بـمُـنْـتَـهٍ
وإنْ أُوقِـدَتْ نـارٌ فَـشُـبَّ وَقـودُهـا
أبِـيـتُ نَـجِـيًّـا لـلـهُـمـومِ مُـسَـهَّـدًا
إذا أُوقِـدَتْ نَـحْـوي بِـلَـيْـلٍ وُقـودُهـا
فـأصْـبَـحْـتُ ذَا نـفـسَـيْـنِ نَـفْـسٍ مـريـضـةٍ
مِـن الـيـأسِ مـا يَـنْـفَـكُّ هَـمٌّ يَـعُـودُهـا
ونـفْـسٍ تُـرجّـي وَصْـلـهـا بَـعْـدَ صـرْمِـهـا
تَـجَـمَّـلُ كـيْ يـزدَادَ غَـيْـظًـا حَـسُـودُهـا
ونَـفْـسـي إذا مـا كُـنْـتُ وَحْـدي تَـقَـطَّـعَـتْ
كـمـا انـسَـلَّ مِـن ذاتِ الـنِّـظَـامِ فَـريـدُهـا
فـلَـمْ تُـبْـدِ لـي يـأسًـا فَـفِـي الـيـأسِ رَاحَـةٌ
ولـم تُـبـدِ لـي جُـودًا فـيـنـفـعَ جُـودُهـا

كـذاك أذودُ الـنَّـفـسَ يـا عـزَّ عَـنْـكُـمُ
وَقَـدْ أعـوَرَتْ أسْـرَارُ مَـنْ لا يَـذُودُهـا

* * *

متى يَجْتَمع شمْلُنا؟

فَـيَـا لَـيْـتَ شِـعـري والـحَـوَادثُ جَـمَّـةٌ
مَـتَـى تَـجْـمَـعُ الأيّـامُ يـومًـا بـهـا شَـمـلا
فَـيـا عَـزٌّ إنْ وَاشٍ وشَـى بـيَ عـنـدكُـمْ
فـلا تُـكْـرِمِـيـهِ أنْ تَـقُـولِـي لـهُ أهْـلا
كَـمَـا لَـوْ وَشَـى وَاشٍ بـوُدِّكِ عِـنْـدنـا
لَـقُـلْـنَـا تَـزَحْـزَحْ لا قـريـبًـا ولا سَـهْـلا
فَـأهْـلاً وسَـهْـلًا بـالـذي شَـدَّ وَصْـلـنـا
ولا مَـرْحـبًـا بـالـقَـائِـلِ اصْـرِمْ لـهـا حَـبْـلا
ألَـمْ يـانِ لـي يَـا قَـلْـبُ أن أتـرُكَ الـجَـهْـلا
وأن يُـحدِثَ الـشّـيـبُ الـمُـلِـمُّ لِـيَ الـعَـقْـلا

* * *

هو وهي...

فـإنْ يَـكُ جُـثـمـانِـي بِـأرضٍ سـواكُـمُ
فـإنَّ فُـؤادِي عِـنْـدَكِ الـدَّهـرَ أجـمَـعُ

إذا قُـلْـتُ هـذا حِـيـنَ أسْـلـو ذكـرتُـهـا
فـظـلَّـتْ لَـهـا نـفـسي تَـتُـوقُ وتَـنْـزَعُ

وكُـنْـتُ ألـومُ الـجـازِعـيـنَ عـلى الـبُـكـا
فَـكـيـفَ ألـومُ الـجـازِعـيـنَ وأجْـزَعُ[1]؟

ولـي كَـبِـدٌ قـد بَـرَّحَـتْ بِـي مَـريـضـةٌ
إذا سُـمْـتُـهـا الـهُـجـرانَ ظـلَّـتْ تَـصَـدَّعُ

فـأصْـبَـحْـتُ مِـمّـا أحـدَثَ الـدَّهـرُ خـاشـعًـا
وكـنْـتُ لـرَيـبِ الـدَهْـرِ لا أتَـخَـشَّـعُ

وعُـرْوةُ لَـمْ يَـلْـقَ الّـذي قـد لـقـيـتُـهُ
بـعَـفْـراءَ والـنَّـهْـديُّ مـا أتَـفَـجَّـعُ[2]

وقـائـلـةٍ: دَعْ وَصْـلَ عَـزَّةَ واتَّـبِـعْ
مَـوَدَّةَ أُخـرى وابـلُـهـا كـيـفَ تَـصْـنَـعُ

---

(1) أجزع: لم أصبر.

(2) عروة بن حزام وصاحبته عفراء، والنهدي: هو عمر بن عجلان صاحب هند.

أراكَ عَليها في المَودَّةِ زارِيًا
وما نِلْتَ مِنها طائِلًا حيثُ تَسْمَعُ
فقُلْتُ: ذَريني[1] بِئسَ ما قُلْتِ إنَّني
عَلى البُخْلِ منها لا عَلى الجُودِ أتْبَعُ
وأعْجَبَني يا عَزَّ مِنْكِ خَلائِقٌ[2]
كِرامٌ إذا عُدَّ الخلائقُ أربَعُ
دنوُّكِ حتّى يَذْكُرَ الجاهِلُ الصِّبا[3]
ودَفْعُكِ أسْبابَ المُنَى حينَ يَطْمَعُ
فَواللهِ ما يَدْرِي كَريمٌ مَطَلْتِهِ
أيَشْتَدُّ إنْ لاقاكِ أم يَتَضَرَّعُ
ومِنْهُنَّ إكرامُ الكَريمِ وهَفْوةُ الْـ
ـلَئيمِ وخلّاتُ المكارِمِ تَنْفَعُ
بَخِلْتِ فكانَ البُخْلُ مِنْكِ سَجيَّةً
فلَيْتَكِ ذو لونَيْنِ: يُعطي ويَمْنَعُ
وإنَّكِ إنْ واصَلْتِ أعْلَمْتِ بالّذي
لديْكِ فلَمْ يُوجَدْ لكِ الدَّهْرَ مَطْمَعُ
فَيا قَلْبُ كُنْ عَنها صَبورًا فإنَّها
يُشَيِّعُها بالصَّبْرِ قَلْبٌ مُشَيَّعُ

* * *

(1) ذريني: اتركيني.

(2) خلائق: سجايا، عناصر.

(3) الصِّبا: الحبّ.

قصيرة...

إذا قِيلَ هَذِي دَارُ عَزَّةَ قَادَنِي
إليها الهوى واستَعْجَلتنِي البَوَادِرُ[1]
أصُدُّ وبي مِثْلُ الجُنُونِ لِكَي يَرَى
رُواةُ الخَنَا[2] أنّي لِبَيْتِكِ هَاجِرُ
فَيَا عَزُّ لَيْتَ النأيَ إذْ حَالَ بينَنا
وبينكِ باعَ الودَّ لي مِنْكِ تَاجِرُ
وَأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قصيرَةٍ
إليَّ وما يدري بذاكَ القصائرُ
عَنَيْتُ قَصِيراتِ الحِجَالِ وَلَمْ أرِدْ
قِصارَ الخُطا شَرُّ النِّسَاءِ البحَاتِرُ[3]

* * *

(1) البوادر: الدموع.

(2) الخنا: الفُحْش، الزنى.

(3) قصيرات الحجال: الملازمات لخدورهن. البحاتِر: القصيرات.

حبٌّ صابِر...

وما زِلْتُ مِنْ لَيلى لدُن طرَّ شارِبي
إلى اليَوْمِ أُخْفي حُبَّها وأُداجِنُ[1]
وأحمِلُ في لَيلى لِقَوْمٍ ضَغينةً[2]
وتُحْمَلُ في لَيلى عليَّ الضَّغائِنُ

* * *

(1) طرّ شاربي: طلع، أصبحت شاباً. أداجن: أخادع.

(2) الضغينة: الحقد.

العيش والموت...

هِـي الـعَـيْـشُ مـا لاقَـتْـك يـومًـا بِـودِّهـا
ومَـوْتٌ إذا لاقـاكَ مِـنْـهـا ازورارُهـا[1]
وإنِّـي وإن شَـطَّـتْ نـواهـا[2] لَـحـافِـظٌ
لَـهـا حـيْـثُ حَـلَّـتْ واسْـتَـقَـرَّ قـرارُهـا
فَـاقْـسَـمْـتُ لا أنـسـاكِ مـا عِـشْـتُ لَـيـلـةً
وإنْ شَـحَـطَـتْ دارٌ وشـطَّ مَـزارُهـا[3]

* * *

(1) ازورارُها: صدُّها.

(2) شطت نواها: ابتعدت عنّي.

(3) أي: وإن ابتعَدَ دارُها عن داري.

إزارُ لُبْنَى

أرى الإزارَ عَـلـى لُـبْـنـى فـأحـسُـدُهُ
إنَّ الإزارَ عَـلـى مـا ضَـمَّ مـحـسـودُ

* * *

تفرُّدٌ

دَعُـونـي لا أريـد بِـهـا سِـواهـا
دَعـونِـي هـائـمًـا فـيـمَـنْ يَـهـيـمُ

* * *

بالقَلْبِ لا بالعَيْن...

يُـزَهِّـدُنـي فـي حُـبِّ عـزَّةَ مَـعْـشَـرٌ
قـلـوبُـهُـمُ فِـيـهـا مُـخـالِـفَـةٌ قَـلْـبي

فقُلْتُ: دَعوا قَلبي وما اختار وارْتَضى
فبِالقَلْبِ لا بالعَيْنِ يُبْصِرُ ذو اللُّبِّ
وما تُبْصِرُ العَيْنانِ في مَوْضِعِ الهَوى
ولا تَسْمَعُ الآذانُ إلّا مِنَ القَلْبِ
وما الحُسْنُ إلّا كُلُّ حُسْنٍ دَعا الصِّبا
وألَّفَ بينَ العِشْقِ والعاشِقِ الصَّبِّ

* * *

كِلانا مَريضانِ

ألا تِلْكَ عَزَّةُ قدْ أصْبَحَتْ
تُقلِّبُ للهَجْرِ طرْفًا غَضِيضَا
تَقُولُ مَرِضْنا فَمَا عُدْتَنَا
فَقُلْتُ لها لا أُطِيقُ النُّهُوضَا
كِلانا مَرِيضَانِ فِي بَلْدَةٍ
وَكَيْفَ يَعُودُ مَرِيضٌ مَرِيضَا

* * *

حَيٍّ يا جَمَلُ

رويَ لكثيّر أنّ محبوبته عزّة حَيّتْ جمله، فقال:

حَيَّتْكَ عزَّةُ بَعْدَ الهجْرِ وانْصَرَفَتْ
فَحيِّ وَيْحَكَ مَنْ حَيَّاكَ يا جَمَلُ
لَوْ كُنْتَ حَيَّيْتَهَا مَا زِلْتَ ذا مِقَةٍ
عندِي ولا مَسَّكَ الإدْلاجُ والعَمَلُ[1]
فَحَنَّ مِنْ وَلَهٍ إذ قُلْتُ ذَاكَ لَهُ
وظلَّ مُعْتَذِرًا قدْ شَفَّهُ الخَجَلُ
وَرَدَّ مِنْ جَزَعٍ مَا كُنْتُ أعْرِفُهَا
وَرَامَ تكْلِيمَهَا لو تَنْطِقُ الإبِلُ[2]
ليتَ التَّحِيَّةَ كَانَتْ لي فأشْكُرَهَا
مَكَانَ يا جَمَلٌ حُيِّيتَ: «يا رجلُ»

* * *

(1) المقة: المحبة. الإدلاج: السّير ليلاً.

(2) الجزع: الخوف. رام: أراد.

الدَّواء...

وأنـتِ لِـعَـيْـنـي قُـرَّةٌ حـيـنَ نَـلْـتَـقـي
وذكْـرُكِ فـي نَـفْـسـي إذا خـدِرَتْ رجْـلِـي
وإنْ رَمَـدَتْ عَـيْـنـايَ يَـومًـا كَـحَـلْـتُـهـا
بِعَيْنَيْكِ، لـمْ أبْغِ الـذَّرورَ[1] من الكُحْلِ

* * *

همَمْتُ وهمَّتْ

هَـمَـمْـتُ وهَـمَّـتْ ثُـمَّ هـابَـتْ وهِـبْـتُـهـا
حَـيـاءً ومِـثْـلِـي بـالـحَـيـاءِ حَـقـيـقُ

* * *

(1) الذَّرور: المسحوق.

ولو أنَّ لَيْلَى الأخيليَّة سلّمَت

علـيَّ ودونـي جَـنْـدَلٌ وصَـفَـائِـحُ

لسلّمْتُ تَسْلِيمَ البَشَاشَةِ أو زَقَا

إلَيْهَا صَدًى من جانِبِ القَبْرِ صَائِحُ

وأُغْـبَـطُ مـن لَـيْـلَـى بـمـا لا أَنَـالُـهُ

ألاَ كلُّ ما قرَّتْ بهِ العَيْنُ صَالِحُ

توبة بن الحُمَيِّر



توبة بن الحميِّر

(...- 85 هـ/ 704م)

توبة بن الحميِّر بن حزم بن كعب بن خفاجة العقيلي العامري، أبو حرب، شاعر من عشّاق العرب المشهورين. كان يهوى ليلى الأخيلية وخطبها، فردّه أبوها وزوّجها غيره، فانطلق يقول الشعر مشبّبًا بها. واشتهر أمره، وسار شعره، وكثرت أخباره. قتله بنو عوف بن عقيل، وفي كتاب «التعازي» للمبرد: كان سبب قتل توبة أنهم كانوا يطلبونه، فأحسوه وقد قدم من سفر، ومعه عبيد الله ابن توبة وقابض، مولاه، وبينه وبين الحي ليلة، فأتوه طروقًا، فهرب صاحباه وأسلماه فقتل، وقيل: قُتل في غزوة أغار بها[1].

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 89-90.

ليلى الأخيليَّة

(...- نحو 80هـ/ نحو 700م)

ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب، الأخيليَّة، من بني عامر بن صعصعة. شاعرة فصيحة ذكية جميلة. اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير. وفدت على «الحجاج» مرات، فكان يكرمها ويقربها. وطبقتها في الشعر تلي طبقة الخنساء. وكانت بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة. وأبلغ شعرها قصيدتها في رثاء توبة، منها:

وتـــوبـــة أحْـــيـــا مـــن فـــتـــاةٍ حَـــيِـــيَّـــةٍ
وأجْـــرَأُ مِـــنْ لَـــيْـــثٍ بـــخَـــفَـــانَ خـــادِرِ

وسألت الحجاج وهو في الكوفة أن يكتب لها إلى عامله بالريّ، فكتب، ورَحَلت، فلما كانت في «سلوة» ماتت ودفنت هناك. وقام بجمع الباقي من شعرها خليل وجليل العطية، في «ديوان ليلى الأخيليَّة»[1]

* * *

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 5/ 249.

من أخبارهما

ليلى والحجّاج[1]

قدمت ليلى الأخيليَّةُ على الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، فأجلسها في مجلسه، وقال لها: أنشدينا يا ليلى بعضَ ما قالَ فيك توبةُ.

فقالتْ: نعم أيّها الأميرُ. وهو الذي يقول:

وهَل تَبْكِيَنْ ليلى إذا متُّ قبلَها
وقامَ على قَبري النساءُ النَّوائِحُ؟
كما لو أصابَ الموتُ ليلى بكيتُها
وجادَ لها دمْعٌ منَ العينِ سافحُ
وأُغْبَطُ من ليلى بما لا أنالُه
الا كلُّ ما قرّتْ بهِ العينُ صالحُ
ولو أنَّ لَيْلَى الأخيليَّة سَلَّمتْ
عليَّ ودُوني تُربةٌ وصفائحُ
لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أوْ زقَا
إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ[2]

(1) نزهة المسافر في أخبار ليلى الأخيلية. ص 18.

(2) زقا الطائر: صاح. الصدى: طائر كان العرب يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل، ويصيح: اسقوني، حتى يؤخذ بثأره.

فقالَ لها: زِيدينا من شعره.

فقالتْ: وهو الذي يقولُ:

حـمـامـةَ بـطـنِ الـواديَـيْـن تَـرنَّـمـي
سَـقـاكِ مـنَ الـغُـرِّ الـغـوادي مَـطـيـرُهـا
أَبِـيـنـي لـنـا، لا زالَ ريـشُـكِ نـاعِـمًـا
ولا زِلْـتِ فـي خَـضْـراءَ غـضٍّ نـظـيـرُهـا
وكـنـتُ إذا مـا جـئـتُ لـيـلـى تَـبَـرْقَـعَـتْ
فـقـد رابـنـي مـنـهـا الـغـداةَ سُـفُـورُهـا[1]
يـقـولُ رجـالٌ: لا يـضـرُّكَ نـأيُـهـا
بـلـى، كـلُّ مـا أشـفـى الـنُّـفـوسَ يـضـيـرُهـا
بـلـى قـد يـضـيـرُ الـعـيـنَ إنْ كـثـرَ الـبُـكـا
ويُـمـنـعُ مـنـهـا نـومُـهـا وسـرورُهـا
وقـد زَعـمـتْ لـيـلـى بـأنِّـيَ فـاجـرٌ
لـنـفـسـي تُـقـاهـا أو عـلـيـهـا فُـجـورُهـا

فقالَ لها الحجاجُ: ما رابَه مِن سُفورِك؟

قالت: أيُّها الأميرُ، كان يُلمُّ بي كثيرًا، فأرْسَلَ إليَّ يومًا: إنِّي آتيكِ. وفطنَ الحيُّ، فأرصدوا له. فلما أتاني أسفرْتُ له، فعلمَ أنَّ ذلك لشرٍّ. فلم يُزِدْ على التَّسليمِ والرُّجوع.

فقالَ الحجاجُ: لله دَرُّكِ! فهل رأيتِ منه شيئًا تكرهينَهُ؟

---

(1) السفور: كشف المرأة عن وجهها.

قالتْ: لا واللهِ الذي أسأله أنْ يُصلِحَكَ، غيرَ أنه قال لي مرَّةً قولًا ظننتُ أنه قد خضعَ لبعضِ الأمرِ، فأنشأتُ أقولُ:

وذي حاجةٍ قلنا لهُ: لا تَبُحْ بها
فليسَ إليها ما حَيِيتَ سَبيلُ
لنا صاحبٌ لا يَنْبغي أن نخونَهُ
وأنتَ لأخرى فارغٌ وحَليلُ

فلا والله الذي أسألُه أن يُصلِحَك، ما رأيتُ منه شيئًا حتى فرَّقَ الموتُ بَيني وبينَه.

قال: ثمّ مَهْ؟

قالت: ثمّ لم يلبثْ أن خرج في غزاةٍ له، أوصى ابنَ عمِّه: إذا أتيتَ الحاضرَ من بني عُبادة فنادِ بأعلى صوتك:

عَفا اللّهُ عنها، هل أبيتَنَّ ليلَةً
منَ الدهرِ لا يسري إليَّ خيالُها؟

فخرجتُ وأنا أقول:

وعَنْهُ عفا رَبِّي وأحسنَ حالَهُ
فعزٌّ علينا حاجةٌ لا ينالُها

ثمّ قالَ: مَهْ؟

قالت: ثمّ لم يلبثْ أن ماتَ، فأتانا نعيُّهُ.

قال: فأنشدينا بعضَ مراثيك.

فأنشدتْ:

لِـتَـبْـكِ الـعـذارى مـن خَـفـاجـةَ نِـسـوةٌ
بـمـاءِ شُـؤونِ الـعَـبْـرَةِ الـمُـتَـحَـدِّرِ

فلما فرغتْ منَ القصيدة، قال محصنٌ الفَقْعَسيُّ، وكان من جُلساءِ الحجاج: مَن هذا الذي تقولُ هذه هذا فيهِ، فوالله إني لأظنُّها كاذبة.

فنظرتْ إليه ثمّ قالت: أيُّها الأميرُ، إن هذا القاتلَ لو رأى توبةَ، لسرَّه ألاّ يكونَ في دارِهِ عذراءُ إلاّ وهي حاملٌ منه.

قال الحجاج: هذا - وأبيكَ- الجوابُ. وقد كنتَ عنه غنيًّا.

ثمّ قالَ لها: سَلي يا ليلى تُعْطَيْ.

قالت: أعْطِ، فمثلُك أعطى، فأحسنَ.

قال: لكِ عشرون.

قالتْ: زِدْ؛ فمثلكَ زادَ، فأجملَ.

قال: لكِ أربعون.

قالتْ: زدْ؛ فمثلك زادَ، فأفضلَ.

قال: لكِ ستون.

قالت: زِدْ، فمثلك زادَ، فأكمل.

قال: لك ثَمانون.

قالت: زدْ؛ فمثلك زاد، فأتَمَّ.

ثمّ قال: لكِ مئة، واعْلمي يا ليلى أنها غنم.

قالت: معاذَ اللهِ أيُّها الأميرُ، أنتَ أجودُ جُودًا، وأمجدُ مَجدًا، من أن تجعلَها غنمًا.

قال: فما هيَ ويحكِ يا ليلى؟!

قالتْ: مئةُ ناقةٍ برُعاتِها. فأمرَ لها بها، ثمّ قال: ألكِ حاجةٌ بعدَها؟

قالت: نعم، تدفعُ إليّ النابغةَ الجَعديَّ في قَرَنٍ[1].

قال: قد فعلتُ. وقد كانَ النابغة يهجوها وتهْجوه.

فبلغَ النابغةَ ذلك، فخرجَ هاربًا عائذًا بعبد الملك بن مروان فاتَّبعته إلى الشام، فهربَ إلى قُتيبةَ بنِ مُسلم بخراسانَ. فاتَّبعتْه على البريد بكتابِ الحجاج إلى قُتيبةَ. فماتَتْ بقُومِسَ، ويقالُ: بحلوانَ.

وحدَّث رجل يقال له ورقاء قال:

سمعتُ الحجاج يقولُ لليلى الأخيلية: إنَّ شبابَكِ قد مضى فولَّى، واضمحلّ أمرُك وأمرُ توبةَ، فأُقسمُ عليكِ إلا صَدَقْتِني؛ هل كان بينكُما ريبةٌ قطُّ؟ أو خاطبكِ في ذلك قطُّ؟

قالت: لا واللّهِ أيّها الأميرُ! إلا أنه قالَ لي ليلةً - وقد خَلونا - كلمةً ظننتُ أنه خضعَ فيها لبعضِ الأمرِ، فقلتُ له:

وذي حاجةٍ قلنا لهُ: لا تَبُحْ بها
فليسَ إليها ما حَيِيتَ سَبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَهُ
وأنتَ لأخرى فارغٌ وحَليلُ

فلا واللهِ ما سمعتُ منه بعدَها ريبةً حتى فرَّقَ بيننا الموتُ.

قالَ لها الحجاجُ: فما كانَ منه بعدَ ذلك؟

---

(1) القرن: الحبل.

قالتْ: وجّهَ صاحبًا له إلى حاضرِنا فقال: إذا أتيتَ الحاضرَ من بني عُبادةَ بنِ عُقيل فاعْلُ شَرَفًا[1]، ثمّ اهتفْ بهذا البيت:

عفا اللّهُ عنها، هل أبيتَنَّ ليلةً
من الدهرِ لا يَسْرِي إليَّ خيالُها؟

فلمّا فعلَ ذلك الرجلُ عرفتُ المعنى، فقلتُ له:

وعَنْهُ عفا ربي وأحسن حفظَهُ
عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالُها

* * *

(1) الشَّرَف: المرتفع من الأرض.

ليلى ومعاوية بن أبي سفيان[1]

سأل مُعَاويةُ بن أبي سُفْيانَ ليلى الأخيليّة عن توبةَ بن الحُمَيِّر فقال: ويحكِ يا ليلى! أكما يقول الناس كان توبة؟

قالت: يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقًا، والناس شجرةُ بَغْي يحسُدون أهلَ النّعَم حيث كانوا وعلى من كانت. ولقد كان يا أمير المؤمنين سَبْطَ البَنَانِ[2]، حديدَ اللِّسان، شَجًا للأقران[3]، كريمَ المَخْبَر، عفيف المئزَر، جميلَ المَنْظَر. وهو يا أميرَ المؤمنين كما قُلت له.

قال: وما قلتِ له؟

قالت: قلت، ولم أتعدَّ الحقَّ وعلمي فيه:

بَعيدُ الثَّرَى لا يبلُغ القومُ قَعْرَه
أَلَدُّ مُلِدٌّ يَغْلِبُ الحقَّ باطِلُهُ
إذا حلّ رَكْبٌ في ذَرَاه وظِلّهِ
لِيَمْنَعَهم مما تُخافُ نَوازِلُهُ
حماهم بنَصْلِ السَّيف من كلِّ فادحٍ
يخافونَه حتّى تموتَ خَصَائلُه

(1) نزهة المسامِر في أخبار ليلى الأخيلية. ص 54.

(2) سبط البنان: طويلها.

(3) أي: يقتل الشجعان.

قال لها معاويةُ: ويحكِ! يزعمُ الناسُ أنه كان عاهرًا خاربًا.

فقالت من ساعتها:

مَـعـاذَ إلـهِـي كـان والـلـهِ سَـيِّـدًا
جَـوَادًا عـلـى الـعِـلاَّتِ جَـمًّـا نَـوَافِـلُـه
أغَـرَّ خَـفَـاجِـيّـا يـرى الـبُـخْـلَ سُـبَّـةً
تَـحَـلَّـبُ كَـفَّـاهُ الـنَّـدَى وأنَـامِـلُـه
عـفـيـفًـا بـعـيـدَ الـهَـمِّ صُـلْـبًـا قـنـاتُـه
جـمـيـلًا مُـحَـيَّـاهُ قـلـيـلًا غـوائِـلُـه
وقـد عـلِـم الـجـوعُ الـذي بـات سـاريًـا
عـلـى الـضَّـيْـف والـجـيـرانِ أنَّـك قـاتـلُـه
وأنـك رَحْـبُ الـبـاع يـا تَـوْبُ بـالـقِـرَى
إذا مـا لـئـيـمُ الـقـومِ ضـاقـت مَـنَـازِلُـه
يَـبِـيـتُ قـريـرَ الـعـيـنِ مَـنْ بـات جـارَه
ويُـضْـحِـي بـخـيـرٍ ضـيـفُـه ومُـنـازِلُـه

فقال لها معاويةُ: ويحك يا ليلى! لقد جُزْتِ بتوبةَ قَدْرَه.

فقالت: واللَّهِ يا أميرَ المؤمنين لو رأيتَه وخبرتَه لعرفتَ أنّي مقصِّرة في نَعْته، وأنّي لا أبلغُ كُنْه ما هو أهله.

فقال لها معاويةُ: مِنْ أيِّ الرجال كان؟

قالت:

أتَـتْـه الـمَـنَـايَـا حـيـن تَـمّ تَـمَـامُـه
وأقْـصَـرَ عـنـه كـلُّ قِـرْنٍ يُـطَـاوِلُـه

وكان كَلَيْثِ الغابِ يحمِي عَرِينَه
وترضَى به أشبالُه وحلائلُه
غَضُوبٌ حليمٌ حين يُطْلَبُ حلْمُه
وسِمٌّ زُعافٌ لا تُصابُ مَقاتِلُه

قال: فأمر لها بجائزةٍ عظيمة، وقال لها: خَبِّريني بأجْوَدِ ما قُلتِ فيه من الشعر.

قالت: يا أمير المؤمنين، ما قلتُ فيه شيئًا إلاّ والذي فيه من خِصال الخير أكثر منه. ولقد أجدتُ حين قلتُ:

جَزَى اللهُ خيرًا والجزاء بِكَفِّهِ
فَتًى من عُقَيْلٍ ساد غيرَ مُكَلَّفِ
فتًى كانتِ الدُّنيا تهونُ بأَسْرِها
عليه ولا ينفَكُّ جَمَّ التَّصَرُّفِ
ينالُ عَلِيَّاتِ الأُمور بِهَوْنَةٍ
إذا هي أعيَتْ كلَّ خِرْقٍ مُشَرَّفِ
فيا تَوْبُ ما في العيش خيرٌ ولا نَدًى
يُعَدّ وقد أمسيَ في تُرْب نَفْنَفِ
وما نِلْتُ منك النَّصْفَ حتى ارتمَتْ بك الـ
ـمنايا بسَهْم صائِبِ الوَقْع أغْجَفِ
فيا أَلْفَ ألفِ كنتَ حَيًّا مُسَلَّمًا
لألقاكَ مثلَ القَسْورِ المُتَطَرِّفِ
كما كنتَ إذْ كنتَ المُنَحَّى من الرَّدَى
إذا الخيلُ جالت بالقَنا المُتَقَصِّفِ

وكَمْ من لَهِيفٍ مُحْجَرٍ قد أجَبْتَه
بأبيضَ قَطَّاعِ الضَّرِيبةِ مُرْهَفِ
فأنقَذْتَهُ والموتُ يَخرِقُ نابَه
عليه ولم يُطْعَنْ ولم يُتَنَسَّفِ

* * *

ليلى وعبد الملك بن مروان[1]

أخبر إبراهيم بن أيُّوب عن ابن قُتَيْبَةَ قال:

بلغني أنّ ليلى الأخيليّة دخلت على عبد الملك بن مَرْوان وقد أسَنّت وعجزَتْ، فقال لها: ما رأى توبةُ فيك حين هَوِيَكِ؟

قالت: ما رآه الناس فيك حين ولَّوْك.

فضحِك عبد الملك حتى بدتْ له سِنٌّ سَوداء كان يُخفيها.

* * *

(1) الأغاني 11/ 214.

وفاة ليلى(1)

رُوي أنّ ليلى الأخيليّة أقبلتْ من سَفَرٍ، فمرّتْ بقبر تَوْبةَ ومعها زوجها وهي في هَوْدَج لها. فقالت: والله لا أبرَح حتى أُسَلِّم على توبة، فجعل زوجها يمنَعها من ذلك وتأبى إلاّ أن تُلِمّ به. فلمّا كثُر ذلك منها تركَها، فصَعدتْ أكمَةً عليها قبرُ توبة، فقالت: السَّلامُ عليك يا توبةُ، ثمّ حوّلت وجهَها إلى القوم فقالت: ما عَرَفْتُ له كَذِبةً قَطُّ قبلَ هذا.

قالوا: وكيف؟

قالت: أليس القائلَ:

ولـو أنّ لـيـلَـى الأخْـيَـلـيّـة سَـلَّـمـتْ
عـلـيّ ودونـي تُـرْبـةٌ وصـفـائـحُ
لَـسَـلَّـمْـتُ تـسـلـيـمَ الـبَـشـاشـةِ أو زَقَـا
إلـيـهـا صَـدًى من جـانـب الـقـبـر صـائـحُ
وأُغْـبَـطُ مـن لـيـلَـى بـمـا لا أنـالُـه
ألاَ كُـلُّ مـا قَـرَّتْ بـه الـعـيـنُ صـالـحُ

فما بالُه لم يُسلِّم عليَّ كما قال!. وكانت إلى جانب القبر بُومةٌ كامنةٌ،

(1) الأغاني 11/ 214.

فلمّا رأتِ الهودجَ واضطرابَه فَزِعتْ وطارت في وجه الجمل، فنفَر فرمَى بليلَى على رأسها، فماتت من وقتها، فدُفِنتْ إلى جنبه. وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها.

وفي رواية أخرى أنّ ليلى الأخيليَّة بعدَ موت توبةَ تزوَّجَتْ. ثمّ إنَّ زوجها بعد ذلك مرَّ بقبرِ توبَةَ، وليلى معَهُ، فقال لها: يا ليلى، هل تعرفينَ هذا القبرَ؟

فقالتْ: لا.

قال: هذا قبرُ توبةَ، فسلِّمي عليه.

فقالتْ: امضِ لشأنِك، فما تريدُ من توبَةَ، وقد بَليتْ عظامُه؟

فقال: أريدُ أن تكذِّبيهِ، أليسَ هو الذي يقولُ:

ولو أنَّ ليلى الأخيليَّةَ سلَّمتْ
علَيَّ، ودوني تُرْبَةٌ وصفائحُ

لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أوْ زَقا
إليها صدًى من جانبِ القَبرِ صائحُ

واللهِ لا برحتُ أو تسلِّمي عليه

فقالتْ: السَّلامُ عليك يا توبةُ ورحمةُ الله، وباركَ لك فيما صرتَ إليه. فإذا طائرٌ قد خرجَ من القبرِ حتى ضربَ صدرَها، فشهِقَتْ شهْقَةً فماتَتْ، فدُفنتْ إلى جانب قبرهِ، فنبتتْ على قبرهِ شجرةٌ، وعلى قبرِها شجرةٌ، فطالتا والتفَّتا، كلٌّ واحدة على الأخرى. وقد صدَّق الله شعرَهُ.

* * *

زوج ليلى يضربها![1]

خرجَ رجل من بني كلاب يَبْتغي إبلاً له حتى أوحش[2]، فنزل إلى بيتٍ بوادٍ، فأقبلَ حتى نزلَ حيثُ الضِّيفان، فأبصرَ امرأةً وصبيانًا يدورون أو بالخباء، فلم يكلِّمْه أحد. حتى كان بعدَ هدْأةٍ من الليل، فسمعَ جَرْجَراتِ[3] إبلٍ رائحةً، وسمعَ فيها صوتَ رجلٍ، حتى جاءَ بها، فأناخَها على البيتِ ثمّ تقدَّم، فسمعَ الرجل يناجي المرأة فقال: ما هذا السوادُ حذاءَكِ؟

فقالت: راكبٌ أناخَ بنا حيثُ غابتِ الشمسُ، ولم أكلِّمْه.

فقال: كذبتِ، ما هوَ إلا بعضَ خِلاَّنِك. ونهضَ يضربُها، وهي تُناشِدُه.

قالَ الرجلُ: فسمعتُه يقولُ: واللهِ لا أتركُ ضربَكِ حتى يأتيَ ضيفُك هذا فيغيثَكِ. فلما عيلَ صبرُها وغوَّثَتْ قالتْ: يا صاحبَ البعير! يا رجل! فأخذَ هِراوته[4]، ثمّ أقبلَ يُحْضِرُ[5]، حتى أتاهُ وهو يضربُها. فضربَه ثلاثَ ضرباتٍ أو أربعًا، ثمّ أدركَتْه المرأةُ فقالتْ: يا عبد الله! ما لكَ ولنا؟ أعِزَّ عنّا نفسَك.

---

(1) نزهة المسافر في أخبار ليلى الأخيليّة ص 25.

(2) أوحش: أصبح في مكان موحِش، أي: خالٍ من الناس.

(3) الجرجرات: الأصوات.

(4) الهراوة: العصا الثّخينة.

(5) يُحضر: يركض.

فانصرفَ فجلسَ على راحلتِه، وأدلَجَ ليلَتَه[1] كلَّها، وقد ظنَّ أنه قتلَ الرجُلَ، وهو لا يدري مَنِ الرجلُ؟ حتى أصبحَ في أخبيةٍ منَ الناس، ورأى غَنمًا فيها أمَةٌ مولَّدةٌ. فسألها عن أشياءَ حتى بلغَ به الذكرُ فقالَ: أخبريني عن أناسٍ وجدتُهم بشِعبِ كذا وكذا.

فضحكتْ وقالت: إنك لتسألُني عن شيءٍ وأنتَ به عالم.

فقالَ: وما ذاكَ للهِ بلادُك؟ فوالله ما أنا به عالمٌ.

قالتْ: ذاك خِباءُ ليلى الأخيليَّةِ، وهي أحسنُ نساءِ الناس وجهًا، وزوجُها رجلٌ غيورٌ؛ فهو يعزُبُ بها عن الناس[2]، فلا يحلُّ بها معهُم. ووالله ما يقرَبُها أحدٌ ولا يُضيفُها، فكيفَ نزلتَ أنتَ بها؟

قال: إنَّما مررتُ، فنظرتُ إلى الخباءِ[3] ولم أقْرَبْه. وكتَمها الأمرَ.

وتحدَّثَ الناسُ عن رجلٍ نزلَ بها، فضربَ زوجَها، ولم يُدْرَ مَن هو؟

* * *

(1) أي: سار فيها.

(2) يعزب بها عن الناس: يُبعدها عنهم.

(3) الخباء: الخيمة، أو الموضع الذي تسكنه المرأة فيها.

من أجمل شعرهما

من شعره فيها:

نَــأتْــكَ بِــلَــيْــلَــى دارُهــا لا تَــزورُهــا
وشَــطَّ نَــواهــا واسْــتَــمَــرَّ مَــريــرُهــا

يَــقــولُ رجــالٌ: لا يــضــرُّكَ نَــأيُــهــا
بَلى، كلُّ ما شَفَّ النفوسَ يضيرُها[1]

أليسَ يَضرُّ العينَ أنْ تُكثِرَ البُكا
ويُــمــنَــعَ مــنــهــا نَــومُــهــا وسُــرورُهــا

لِــكُــلِّ لِــقــاءٍ نَــلْــتَــقــيــهِ بَــشــاشــةٌ
وإنْ كــانَ حَــوْلًا كــلُّ يــومٍ نَــزورُهــا

خَــلــيــلَــيَّ رُوحــا راشِــدَيْــنِ فــقــد نَــأَتْ
بعيدًا، وَهَلْ في القُربِ شيءٌ يَضيرُها

يَقُرُّ بِعَينِي أنْ أرَى العِيسَ تَغتَلي
بنا نحوَ لَيلى، وهْيَ تَجري صقُورُها

ومــا لَــحِــقَــتْ حــتَّــى تَــقَــلَّــلَ عــرْضُــهــا
وسامحَ مِنْ بَعْدِ المُرامِ عسيرُها

(1) شفَّ: أوهن. يضيرها: يضرّها.

وأشرِفُ بالأرضِ اليَفاعِ لعلّني
أرى نارَ ليلى، أوْ يَراني بَصيرُها[1]
فناديتُ ليلى، والحُمولُ كأنّها
مَواقيرُ نخلٍ زَعْزَعَتْها دَبورها[2]

فقالتْ: أرَى أنْ لا تُفيدَكَ صُحبَتي
لِهَيْبَةِ أعداءٍ تَلَظّى صُدورُها
فمَدّت ليَ الأسبابَ[3] حتّى بَلغْتُها
برِفْقي، وقد كادَ ارْتِفاقي يَضيرُها
وإنّي لَيُشقيني منَ الشّوق أنْ أرى
على الشَّرَفِ النّائي المخوفِ أزورُها
حَمامَةَ بطنِ الواديَينِ تَرَنَّمي!
سَقاكِ مِنَ الغُرِّ الغوادي مَطيرُها
أبِيني لنا ما زالَ ريشُكِ ناعِمًا
ولا زلتِ في خضراءَ دانٍ بَريرُها[4]
وقد تذهبُ الحاجاتُ يسترُها الفَتَى
فتَخْفَى وتَهْوى النَّفْسُ ما لا يُطيرُها
وكنْتُ إذا ما زُرْتُ ليلى تبرقَعَتْ
فقد رابني منها الغَداةَ سُفورُها

(1) اليفاع: المشرف. بصيرها: عينها.
(2) الحمول: الهوادج. الدبور: ريح الغرب. المواقير: النخل الكثير الحمل، مفردها ميقار.
(3) مدّت لي الأسباب: واصلتني.
(4) البرير: ثمر الأراك.

وقد رابني مِنها صُدودٌ رأيتُه
وإعراضُها عن حاجَتي وقُصورُها

أرَتْكَ حِياضَ الموتِ ليلى، وراقَنا
عيونٌ نقِيّاتُ الحَواشي تُديرُها

ألا يا صَفيَّ النَّفسِ كيفَ بِقَولِها
لو أنَّ طرِيدًا خائفًا يَسْتَجِيرُها

تُجيرُ وإنْ شَطَّتْ بها غُربَةُ النَّوَى
سَتَنْعَمُ ليْلى أو يُفادَى أسيرُها

وقد زَعَمتْ ليلى بأنّي فاجِرٌ
لنفسي تُقاها أو عَليها فُجورُها

فإنْ لا تَناهوا يركبِ البيدَ نحوَها
وخفَّت بِرجْلٍ أو جناحٍ يُطيرُها

لعلَّكَ يا قيسًا تَرى في مَريرةٍ
مُعذَّبَ ليلى إنْ رآني أزورُها

أظُنُّ بها خَيرًا وأعلَمُ أنها
سَتَنفكُّ يومًا أو يُفكُّ أسيرُها

أرى اليومَ ياتي دونَ ليلى كأنّما
أتتْ حِجَّةٌ من دونها وشهورُها

عليَّ دِماءُ البُدْنِ إنْ كان بعلُها
يَرى ليَ ذنبًا غيرَ أني أزورُها

* * *

الخوف الصّادق...

قـالَـتْ مـخـافَـةَ بَـيْـنِـنـا، وبـكَـتْ لَـهُ
والـبَـيْـنُ مـبـعـوثٌ عـلـى الـمـتـخـوِّفِ[1]

لـو مَـاتَ شَـيءٌ مـن مَـخَـافَـةِ فُـرْقَـةٍ
لأمَـاتَـنِـي لِـلْـبَـيْـنِ طُـولُ تـخـوُّفـي

مَـلأَ الَـهَـوى قَـلْـبِـي فَـفِـقْـتُ بِـحَـمْـلِـهِ
حَـتَّـى نَـطَـقْـتُ بـهِ بـغـيْـرِ تَـكـلُّـفِ

ومن شعرها فيه:

فـأقـسَـمْـتُ أبْـكـي بَـعْـدَ تـوبـةَ هـالـكًـا
وأحـفِـلُ[2] مَـنْ نـالـتْ صُـروفُ الـمـقـادرِ

عـلـى مِـثْـلِ هَـمَّـام ولابْـنِ[3] مُـطَـرِّف
لـتَـبـكِ الـبـواكـي أو لـبِـشْـرِ بـنِ عـامـرِ

---

(1) المعنى: أنَّ من اشتدَّ خوفُه من وقوع مكروه كانت شدَّة خوفه دليلاً على وقوع ذلك المكروه وأن ثمّت أسباباً أكيدة تجعل وقوع ذلك المكروه مُنْتَظراً.

(2) فأقسمت أبكي: أي لا أبكي.

(3) وفي المطبوعة: كابن.. كبشر.

غـلامـان كـانـا اسْـتَـورَدا كـلَّ سَـوْرةٍ
مِنَ المجدِ[1] ثمّ اسْتَوثقا في المصادِرِ

كـأنَّ سـنـا نـارَيْـهـمـا كـلّ شَـتْـوةٍ
سَنا البرْقِ يَبْدو للعُيونِ النَّواظِرِ

ومِن مراثيها فيه أيضًا:

أيـا عـيـنُ بَـكِّـي تَـوبـةَ بـن حُـمَـيِّـرِ
بسَحٍّ كفَيْضِ الجَدْوَلِ المتفَجِّرِ

لِـتَـبْـكِ عـلـيـه مِـن خَـفـاجـةَ نِـسـوةٌ[2]
بماءِ شُؤونِ العَبرةِ المتحدِّرِ[3]

سَـمِـعْـنَ بـهَـيْـجـا أضْـلـعـتْ فـذكَـرْنَـهُ
وما يبعَثُ الأحزانَ مثلُ التذكُّرِ[4]

كـأنَّ فـتـى الـفِـتـيـانِ تَـوبـةُ لـم يَـسِـرْ
بنَجْدٍ، ولم يَطلُعْ مَعَ المُتَغوِّرِ[5]

ولـم يَـرِدِ الـمـاءَ الـسِّـدامَ إذا بَـدا
سَنا الصُّبحِ في بادي الحواشي مُنَوِّرِ[6]

---

(1) السورة من المجد: أثره وعلامته وارتفاعه.

(2) خفاجة: رهط توبة.

(3) شؤون العبرة: الدموع.

(4) الهيجا: الحرب. أضلعت: أثقلت.

(5) المتغوّر: الذي يأتي الغور، وهو ما انخفض من الأرض.

(6) الماء السدام: القديم المندفن.

ولـمْ يَـغْـلُ بـالـجُـرْدِ الـجِـيـادِ يـقُـودُهـا
بِـسُـرَّةَ بـيـنَ الأَشْـمَـسـاتِ فـأيـصُـرِ[1]
وصَـحـراءَ مَـوْمـاةٍ يـحـارُ بـهـا الـقَـطـا
قَـطَـعْـتَ عـلـى هَـوْلِ الـجـنـانِ بِـمِـنْـسَـرِ[2]
يَـقـودونَ قُـبّـا كـالـسَّـراحـيـنِ لاحَـهـا
سُـرَاهُـمْ وسَـيْـرُ الـراكـبِ الـمُـتَـهـجِّـرِ[3]
قَـتَـلـتـم فـتـىً لا يُـسـقِـطُ الـرَّوْعُ رُمـحَـهُ
إذا الـخـيـلُ جـالـتْ فـي الـقَـنـا الـمـتـكـسِّـرِ
فـيـا تَـوبَ لِـلـهَـيْـجـا، ويـا تَـوبَ لـلـنَّـدى،
ويـا تـوبَ لـلـمُـسـتَـنْـبِـحِ الـمـتَـنَـوِّرِ[4]
ويـا رُبَّ مَـكـروبٍ أَجَـبْـتَ ونـائـلٍ
بـذلـتَ، ومـعـروفٍ لـديـكَ ومُـنـكَـرِ

* * *

(1) أشمس (جمعها أشمسات): جبل في شق بلاد بني عقيل، وذكرته ليلى مجموعاً لأنها أرادت الجبل وما حوله. سرة وأيصر: موضعان.

(2) المنسر(هنا): قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير.

(3) القب: الدقاق الخصور. السراحين: الذئاب. لاحها: غيَّرها.

(4) المستنبح: الذي ينبح كالكلب ليستجيب له كلب الحي. المتنور: الذي يبصر النار من بعيد.

تَحَمَّلْتُ مِنْ عفراءَ ما ليس لي بِهِ
ولا لِلجبالِ الرَّاسِياتِ يَدانِ
فَيا رَبِّ، أنْتَ المُسْتَعانُ على الّذي
تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْراءَ مُنْذُ زمانِ
كَأَنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بِجَناحِها
على كَبِدي من شِدَّةِ الخَفَقانِ

عروة بن حزام



عروة بن حزام

(...- نحو 30هـ/ نحو 650م)

عروة بن حزام بن مهاجر الضبِّي، من بني عذرة. شاعر، من متيّمي العرب. كان يحب ابنة عمّ له اسمها «عفراء». نشأ معها في بيت واحد، لأنّ أباه خلفه صغيرًا، فكفله عمه. ولمّا كبرَت خطبها عروة، فطلبت أمها مهرًا لا قدرة له عليه، فرحل إلى عمّ له باليمن، وعاد، فإذا هي قد زُوِّجت بأمويّ من أهل البلقاء (بالشام) فلحق بها، فأكرمه زوجها، فأقام أيامًا وودعها وانصرف، فضنى حبًا، فمات قبل بلوغ حيّه. ودُفن في وادي القرى(قرب المدينة) له «ديوان شعر» صغير[1].

* * *

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 4/ 226.

أخباره
كما جاءت في كتاب
«الأغاني»

جاء في الأغاني[1]:

كان من حَدِيثِ عُروةَ بنِ حِزام وعفراءَ بنت عِقالٍ: أنّ حِزامًا هلَك وترك ابنَه عُروةَ صغيرًا في حِجْر عمِّه عِقالِ بن مُهاصِر. وكانت عَفراءُ تِرْبًا[2] لعُروةَ، يلعبان جميعًا، ويكونانِ مَعًا، حتى أَلِفَ كلٌّ واحدٍ منهُما صاحبه إلفًا شديدًا.

وكان عِقالٌ يقول لعُروةَ، لمّا يرى من إلْفِهما: أَبْشِرْ، فإن عفراءَ امرأتُك، إن شاءَ اللَّهُ. فكانَا كذلِكَ حتى لَحِقَتْ عفراءُ بالنِّساء، ولحِقَ عُروةُ بالرجالِ[3]، فأتَى عُروَةُ عمَّةً له يقالُ لها: هندُ بنتُ مُهاصر، فَشَكا إليها ما بِهِ من حُبِّ عفراءَ، وقال لها في بعضِ ما يَقولُ لها: يا عمَّةُ، إنِّي لأكلِّمُك وأنا مِنكِ مُسْتَحٍ، ولكنْ لم أفعلْ هذا حتى ضِقْتُ ذَرْعًا بما أنا فيه. فذهبتْ عمَّتُه إلى أخيها فقالت له: يا أخي، قد أتيتُكَ في حاجةٍ أُحبُّ أن تُحْسِن فيها الردَّ، فإنَّ اللَّهَ يأجُرك بصلة رَحِمِكَ فيما أسأَلُكِ.

فقال لها: قولي، فلن تَسألي حاجةً إلا رَدَدْتُك بها[4].

قالت: تُزوِّجُ عُروةَ ابنَ أخيكَ بابنتِك عَفراءَ.

فقالَ: ما عَنهُ مَذْهبٌ، ولا هو دُونَ رَجُلٍ يُرغَبُ فيه، ولا بنا عنه رغبةٌ؛

(1) الأغاني 24/ 124- 137.

(2) الترب: المماثل في السن.

(3) أي بلغت عفراء مبلغ النساء وبلغ عروة مبلغ الرجال.

(4) رددتك بها: قضيتها لك.

ولكنّه ليس بِذي مالٍ، وليستْ عليه عَجَلَةٌ. فطابَتْ نفسُ عُروةَ، وسكنَ بعضَ السُّكونِ.

* * *

أم عفراء تشترط مهرًا غاليًا

وكانت أُمُّها سيِّئة الرأي فيه، تريدُ لابنتها ذا مالٍ ووفرٍ، وكانت عُرضةُ ذلك كمالًا وجمالًا، فلما تكامَلَتْ سنُّه وبَلَغَ أَشُدَّهُ عَرَفَ أنَّ رَجُلًا من قَوْمِهِ ذا يَسارٍ ومالٍ كثيرٍ يخطبُها، فأتى عمَّه، فقال: يا عمّ، قد عَرفتَ حقّي وقرابتي، وإني وَلَدُكَ وَرُبّيتُ في حِجْرِكَ[1]، وقد بلغني أن رجلًا يخطب عفراءَ، فإن أسعَفْته بطَلبَته قتلتني وسَفَكتَ دمي، فأنشُدك اللّهَ ورحِمِي[2] وحقّي. فرَقَّ له وقال له: يا بُنيَّ، أنت مُعْدِم[3]، وحالُنا قريبةٌ من حالِكَ، ولستُ مُخْرِجَها إلى سِواكَ[4]، وأُمُّها قد أبتْ أن تزوِّجها إلا بمَهْرٍ غالٍ، فاضطَرِبْ واستَرْزِقِ اللّه تعالى.

فجاءَ إلى أمِّها فألطفَها ودارَاها، فأَبَتْ أن تُحبيبَه إلا بما تَحْتَكِمُه[5] من المَهْرِ، وبعد أن يَسُوقَ شَطْره[6] إليها، فوعدها بذلك.

(1) حجرك: كنفك.

(2) الرحم: القرابة.

(3) معدم: فقير.

(4) لست مخرجها سواك: لن تخرج إلى بيت سواك.

(5) تحتكمه: تقرره.

(6) شطره: نصفه.

وعلم أنه لا يَنفَعُهُ قرابةٌ ولا غيرُها إلاَّ بالمالِ الذي يطلبونه، فعَمل على قصْدِ ابن عمٍّ له مُوسِرٍ كان مُقيمًا باليمنِ، فجاء إلى عمِّه وامرأتِه فأخبرهما بِعزْمِهِ، فصوَّباهُ وَوَعَداه ألاَّ يُحْدِثا حدَثًا حتى يَعُودَ.

* * *

وداعُ عفراء

وصار في ليلةِ رَحيلهِ إلى عَفْراء، فجلس عِندها ليلةً هو وجَوارِي الحيّ، يتحدَّثون حتى أصبَحُوا، ثمّ ودَّعها وودَّع الحيّ وشدَّ على راحِلته، وصَحِبَه في طريقِه فَتَيانِ من بني هِلال بنِ عامرٍ كانا يألفانِه، وكان حيَّاهُم متجاوِرين، وكان في طُول سَفَره ساهيًا يكلِّمانِه فلا يَفْهَم، فِكرةً في عفراءَ، حتى يُرَدَّ القولُ عليه[1] مِرارًا، حتى قدم على ابن عمِّه، فلقيَهُ وعَرَّفَه حالهُ وما قَدِم له، فوصَلَه وكَساه، وأعطاهُ مائةً من الإِبل، فانصَرَفَ بها إلى أَهْلِه.

وقد كان رجلٌ من أهل الشَّام من أسبابِ بني أُميَّة نزل في حيّ عفراءَ، فنحَر وَوَهَب وأطْعَم، وكان ذا مالٍ عظيم، فرأى عفراءَ، وكان منزلُه قريبًا من منزِلِهم، فأعجبَتْهُ وخطبها إلى أبيها، فاعتَذَرَ إليه وقال: قد سمَّيْتُها إلى ابن أخٍ لي يُعْدِلُها[2] عِندِي، وما إليه لغيره سَبيل، فقال له: إني أرغَبكَ في المهر.

قال: لا حاجة لي بذلِكَ، فعدلَ[3] إلى أمِّها، فَوافَقَ عندَها قبولًا، لبَذْلِه

(1) يرد القول عليه: يكرّر عليه.

(2) يعدلها: يساويها.

(3) عدل: مال.

ورَغبةٍ في مالِه، فأجابَتْهُ وودعته، وجاءت إلى عقالٍ فآدَتْه[1] وصخِبَتْ مَعَهُ[2]، وقالَتْ: أيُّ خيرٍ في عُروَة حتى تُحَبّسَ ابنتي علَيه وقد جاءَها الغَنيُّ يطرُقُ عليها بابَها؟ واللَّه ما نَدْري أعرَوة حيٌّ أمْ مَيِّتٌ؟ وهل ينقلبُ إليك بخيرٍ أمْ لا؟ فتكون قد حَرمْت ابنَتَك خيرًا حاضرًا ورزقًا سنيًّا[3] فلم تزل به حتى قال لها: فإن عادَ لي خاطبًا أجبتُه. فوجَّهتْ إليه أن عدْ إليه خاطبًا.

فلمَّا كان من غدٍ نَحَر جُزُرًا[4] عِدَّةً، وأطعَم ووهب وجمَع الحيَّ معهُ على طعامه، وفيهم أبو عفراء، فلمَّا طَعِموا أعاد القولَ في الخِطْبة، فأجابه وزوَّجه، وساق إليه المهر، وحُوِّلت إليه عفراءُ وقالت قبل أن يدْخُلَ بها:

يـا عُـرْوَ إنَّ الـحـيَّ قـد نـقـضـوا

عَـهْـدَ الإلـه وحـاوَلـوا الـغَـدْرا[5]

في أبيات طويلة.

فلمَّا كان اللَّيلُ دخَل بها زَوجُها، وأقام فيهم ثلاثًا، ثمّ ارتحل بها إلى الشام، وعمد أبوها إلى قبرٍ عتيقٍ، فجدَّدُه وسوَّاهُ، وسأل الحيَّ كتمانَ أمرها.

* * *

(1) عقال: أبو عفراء. آدته: أي حاولت أن تثنيه عن رأيه بتزويجها من عروة.

(2) صخبت معه: صاحت وأجلبت وتعالت أصواتهما.

(3) السني: ذو الرفعة والقدر.

(4) الجزر: جمع جزور وهو ما يصلح من الإبل للذبح.

(5) عرو: مرخم عروة.

عروة يعرف حقيقة الأمر

وَقدِم عُروةُ بعد أيَّام، فنعاها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القَبرِ، فمكث يختلفُ إليه أيَّامًا وهو مُضْنًى هالكٌ، حتى جاءته جاريةٌ من الحيّ فأخبرتْه الخبر، فتركهم وركب بعضَ إبله، وأخذ معه زادًا ونفقةً، ورحل إلى الشَّام فقدِمها وسأل عن الرجل فأُخبِر به، ودُلَّ عليه، فقَصدُه وانتسب له إلى عدنان، فأكرمَه وأحسن ضيافَته، فمكث أيَّامًا حتى أنِسُوا به، ثمّ قال لجارية لهم: هل لكِ في يدٍ تولينيها؟

قالت: نعم.

قال: تدفَعين خاتَمي هذا إلى مولاتك.

فقالت: سَوْءَة لك، أما تَسْتَحِي لهذا القول؟ فأمسك عنها، ثمّ أعاد عليها وقال لها: ويحك! هي واللَّه بنتُ عمِّي، وما أحدٌ منَّا إلا وهُو أعزُّ على صاحِبِه من الناس جميعًا، فاطْرحي هذا الخاتم في صَبُوحِها[1]، فإذا أنكرتْ عليكِ فقولي لها: اصطَبح ضيفُك قَبْلَك، ولعلَّه سَقَطَ مِنْهُ. فَرَقَّت الأَمَةُ وفعلتْ ما أمَرها به.

فلما شَرِبَتْ عفراءُ اللبنَ رأت الخاتمَ فعرفَتْه، فشهقتْ[2]، ثمّ قالت: اصدُقيني عن الخبر، فصدَقْتها. فلمَّا جاءَ زوجُها قالت له: أتدري مَن ضيفُكَ هذا؟ قال: نعم، فلان بن فلان، للنَّسب الذي انْتَسب له عُروة، فقال: كلا واللَّه يا هذا، بل هو عُروة بن حِزام ابنُ عمِّي، وقد كَتم نفسَه حَياءً مِنكَ.

(1) الصبوح: شراب الصباح.

(2) شهقت: تردّد النفس في حلقها.

وقال عمرُ بن شبَّة في خبره:

بل جاءَ ابنُ عمٍّ له فقال: أتركتُم هذا الكلب الذي قد نَزَل بِكم هكذا في دارِكم يفضَحُكم؟ فقال له: ومَن تَعني؟ قال: عُروةُ بن حزام العُذْرِيُّ ضيفُك هذا، قال: أوَإنَّه لعروةُ؟ بل أنتَ واللَّه الكلبُ، وهو الكَرِيمُ القَرِيبُ.

* * *

شهامة زوج عفراء وطيبته

ثمّ بَعَث إليه فدَعاه، وعاتَبهُ على كتمانِه نفسه إيَّاه، وقال له: بالرحْب والسَّعَةِ، نَشَدتُكَ اللَّهَ إن رِمْتَ هذا المكانَ أبدًا، وخرج وتركَهُ مع عفراءَ يتحدَّثان، وأوصى خَادمًا له بالاستماعِ عليهما، وإعادة ما تسمَعُه[1] منهُما عَلَيه، فلمَّا خَلَوا تَشَاكَيا ما وَجَدا[2] بعد الفِراقِ، فطالت الشَّكْوَى، وهو يَبكي أَحَرَّ بكاءٍ، ثمّ أتَتْه بشرابٍ وسألَتْه أن يشرَبه، فقال: واللَّهِ ما دَخل جَوفي حَرامٌ قطُّ، ولا ارتكبتُه منذُ كنتُ، ولو استحلَلْتُ حَرامًا لكنتُ قد استحللتُه منكِ، فأنتِ حظِّي من الدُّنيا، وقد ذَهبْتِ منِّي، وذَهَبتُ بعدَكِ فما أَعِيشُ!

وقد أجملَ هذا الرجلُ الكريمُ وأحسنَ، وأنا مستحيٍ منه، ووَاللَّه لا أقيمُ بعد علمِه مكاني، وإنِّي عالِمٌ أنِّي أرحلُ إلى مَنِيَّتي. فبكتْ وبكى، وانصرف.

فلما جاء زوجها أخبرته الخادمة بما دار بينهما، فقال: يا عفراء، امْنعي ابن عمِّك من الخروج، فقالت: لا يمنع، هو وَاللَّهِ أكرمُ وأَشدُّ حياءً من أن

(1) تسمعه: الضمير عائد إلى خادم.

(2) وجدا: من الوجد أي شدّة الشّوق.

يُقيمَ بعْدَ ما جَرَى بينَكما، فَدَعَاهُ وقَالَ لهُ: يا أَخِي، اتّقِ اللَّهَ في نفْسِك، فقد عَرفتُ خَبركَ، وإِنَّكَ إن رَحَلْت تَلفْت[1]، وَوَاللَّهِ لا أمنُعكَ مِن الاجتماع مَعَهَا أَبدًا، وَلئنْ شِئتَ لأفارقنَّها ولأنزلَنَّ[2] عنها لكَ.

فجزاهُ خَيرًا، وأثنى عليه، وقال: إنما كان الطَّمعُ فيها آفتي[3]، والآن قد يئستُ، وقد حملتُ نفسي على اليأس والصَّبر، فإِنَّ اليَأس يُسلي، ولي أمورٌ، وَلا بُدَّ لي من رُجُوعي إليها، فإن وَجدتُ منْ نفسي قوّةً على ذلكَ، وإلاَّ رجعتُ إليكمْ وَزُرتكم، حتَّى يقْضِيَ الله من أمْري ما يَشاءُ. فزوَّدوه وَأكْرمُوه وشَيَّعوه[4]، فانصرف.

فلمَّا رَحَل عنهم نُكس[5] بعدَ صلاحِهِ وتماثُلِه[6]، وأصَابهُ غَشْيٌ وخَفقَانٌ؛ فكان كُلّما أُغمِيَ عليه أُلقِي على وَجههِ خِمَارٌ لعَفراءَ زوَّدتْه إيَّاهُ، فيُفيق.

* * *

مع طبيب

قالَ: ولقيهُ في الطَّريق ابنُ مكحولٍ عرَّافُ[7] اليمامة، فرآه وجَلس عنده،

---

(1) تلفت: هلكت.

(2) نزل عن الأمر: تخلّى عنه.

(3) آفتي: مرضي.

(4) شيعوه: خرجوا معه ليودعوه.

(5) نكس: عاودته العلة بعد الشفاء.

(6) التماثل: الشفاء.

(7) عراف اليمامة: طبيبها.

وسأله عمَّا به؛ وهل هو خَبلٌ[1] أو جُنونٌ؟ فقالَ لهُ عُرْوةُ: أَلكَ علمٌ بالأوجاع؟. قالَ: نعمْ؛ فأنشأ يقول:

ومـا بـيَ مـن خَـبْـلٍ ولا بـيَ جِـنَّـةٌ
ولـكـنَّ عـمِّـي يـا أُخَـيَّ كـذُوبُ[2]

أقـولُ لِـعَـرّافِ الـيـمـامـة داوِنـي
فَـإنَّـكَ إنْ داوَيـتَـنِـي لَـطَـبـيـبُ

فَـوا كَـبِـدا أمْـسَـتْ رُفـاتًـا كَـأنَّـمـا
يُـلـذِّعُـهـا بـالـمُـوقِـداتِ طـبـيـبُ[3]

عَـشـيَّـةَ لا عَـفـراءُ مـنْـكَ بـعِـيـدةٌ
فَـتـسْـلـو ولا عَـفْـراءُ مِـنـكَ قـريـبُ

فَـوالـلّـهِ لا أنـسـاكِ مـا هـبَّـتِ الـصَّـبـا
ومـا عـقَّـبَـتْـهـا فـي الـرِّيـاحِ جَـنُـوبُ[4]

وإنّـي لـتَـغـشـانـي لـذِكـراكِ هِـزّةٌ
لَـهـا بـيـنَ جـلـدِي والـعِـظـامِ دَبـيـبُ[5]

* * *

(1) الخبل: فساد العقل.

(2) الجنة: الجنون. أُخيَّ: مصغر أخي.

(3) واكبدا: «وا» حرف نداء مختص بأسلوب الندبة. الرفات: الحطام والفتات من كل ما تكسّر واندق. يلذعها: يحرقها. الموقدات: أدوات توقد فيها النار.

(4) الصبا: الريح الخفيفة.

(5) تغشاني: تعروني. هزة: ارتعاشة. الدبيب: المشي البطيء.

يخاطب صاحبيه بقصته

وقال أيضًا يخاطب صاحبيه الهلاليّين بقصَّته:

خَـلـيـلـيَّ مـن عُـلـيـا هـلالِ بـنِ عـامـرٍ
بِـصَـنْـعـاءَ عـوجـا الـيـومَ وانـتـظـرانـي

ولا تَـزْهـدا فـي الـذُّخـرِ عـنـدي وأجْـمِـلا
فـإنَّـكُـمـا بِـي الـيـومَ مـبـتَـلِـيـانِ[1]

ألِـمّـا عـلـى عـفـراءَ إنّـكـمـا غـدا
بـوَشْـك الـنَّـوَى والـبَـيْـنِ مـعـتـرفـان[2]

فـيـا واشِـيَـيْ عَـفـراءَ ويـحـكـمـا بِـمـنْ
ومـا وإلـى مَـنْ جِـئْـتُـمـا تـشِـيـانِ

بـمَـنْ لَـوْ أراهُ عـانـيًـا لـفَـدَيْـتُـهُ
ومَـنْ لـو رآنِـي عـانـيًـا لـفَـدانـي[3]

مـتـى تـكـشـفـا عـنّـي الـقـمـيـصَ تَـبَـيَّـنـا
بِـيَ الـضُّـرَّ مـن عَـفْـراء يـا فَـتَـيـانِ[4]

إذَنْ تَـرَيـا لَـحْـمًـا قـلـيـلًا وأعْـظُـمًـا
بَـلِـيـن وَقَـلْـبًـا دائـمَ الـخَـفَـقـانِ

---

(1) الذخر: كل ما خُبِّئ لوقت الحاجة.

(2) النوى والبين: البعد والفراق.

(3) العاني: الأسير.

(4) يريد أنه لو تعرّى من ثيابه لظهر نحوله الذي سبّبه حبه لعفراء.

وقـد تَـرَكَـتْـنِـي لا أعِـي لـمـحـدِّثٍ
حـديـثًـا وإن نـاجـيـتُـهُ ونـجـانـي[1]

جـعـلـتُ لـعـرّاف الـيـمـامـةِ حُـكـمَـه
وعَـرّافِ حَـجْـرٍ إن هـمـا شَـفَـيـانـي

فـمـا تـركـا مـن رُقْـيَـةٍ يَـعْـلَـمـانِـهـا
ولا شُـرْبَـةٍ إلّا وقـد سَـقَـيـانـي

ورَشّـا عـلـى وجْـهـي مـن الـمـاء سـاعـةً
وقـامـا مـع الـعُـوّاد يـبـتَـدِران[2]

وقـالا: شَـفـاكَ الـلَّـهُ والـلَّـهِ مـا لـنـا
بـمـا ضُـمِّـنـتْ مـنـكَ الـضُّـلـوعُ يـدانِ[3]

فـويْـلـي عـلـى عَـفـراءَ ويـلًا كـأنَّـهُ
عـلـى الـصَّـدْرِ والأحـشـاء حـدُّ سِـنـان[4]

أُحِـبُّ ابْـنَـةَ الـعُـذْرِيِّ حُـبًّـا وإنْ نَـأَتْ
ودانَـيْـتُ فـيـهـا غـيـرَ مـا مُـتـدانِ[5]

إذا قـلـتُ لا، قـالا: بـلـى، ثـمّ أصْـبَـحـا
جـمـيـعًـا عـلـى الـرَّأيِ الـذي يَـرَيـانِ

---

(1) ناجيته: حدثته بصوت خافت.

(2) العواد: الزائرون أثناء المرض.

(3) والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع يدان: لا طاقة لنا عليه.

(4) السنان: نصل الرمح.

(5) المتداني: المتقارب.

تَحمَّلْتُ مِنْ عفراءَ ما ليس لي بِهِ
ولا لِلجبالِ الرَّاسِياتِ يَدانِ[1]

فَيا رَبِّ أنتَ المستعانُ عَلى الّذي
تحمَّلتُ مِنْ عَفراءَ منذُ زمانِ

كَأَنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بِجَناحِها
على كَبِدي من شِدَّةِ الخَفَقانِ[2]

* * *

موته ثمّ موت عفراء

قال: فلم يزلْ في طريقهِ حتى ماتَ قبلَ أن يصِلَ إلى حيِّه بثلاثِ ليَالٍ، وبلغ عفراءَ خبرُ وفاته، فجَزِعَتْ جَزعًا شدِيدًا، وقالت ترْثيه:

ألا أيُّها الرَّكْبُ المُخِبُّونَ وَيحكمُ
بحقٍ نَعيْتُم عُروةَ بنَ حِزامِ[3]
فَلا تهنأ الفِتيانَ بعدكَ لذَّةٌ
ولا رجعُوا مِنْ غَيْبَةٍ بسَلامِ

(1) الراسيات: الثابتات الراسخات.

(2) القطاة: واحدة القطا، وهو طائر يشبه الحمام.

(3) المخبون: المسرعون.

وقُـلْ لـلـحَـبَـالـى: لا تُـرجِّـيـنَ غـائـبًـا
ولا فَـــرِحـــاتٍ بـــعـــدَهُ بـــغُـــلامِ

قال: ولم تزلْ تردِّدُ هذه الأبياتَ وتندُبه بها، حتى ماتَتْ بعده بأيَّامٍ قلائِلَ.

* * *

خبر عن معرفته بتزويجها

وذكَر عُمَر بن شَبَّةَ في خَبره:

أنَّهُ لم يعلمْ بتزويجها حتى لقي الرُّفقةَ التي هي فيها، وأنَّهُ كان توجَّه إلى ابن عمٍّ له بالشام، لا باليمن، فلمَّا رآها وقَف دَهِشًا، ثمّ قال:

ومـــا هُـــوَ إلاّ أنْ أراهـــا فُـــجـــاءَةً
فَـأُبْـهَـتَ حـتـى مـا أكـادُ أُجِـيـبُ
وَأُصْـدَفُ عـن رَأيـي الّـذي كُـنْـتُ أرْتَـئي
وأنـسـى الّـذي أزْمَـعْـتُ حِـيـنَ تَـغـيـبُ[1]
وَيُـظْـهِـرُ قَـلْـبـي عُـذْرَهـا ويُـعـيـنـهـا
عَـلَـيَّ فـمـا لـي فـي الـفـؤادِ نـصـيـبُ
وقـد عَـلِـمَـتْ نـفـسي مـكـانَ شِـفـائِـهـا
قَـريـبًـا وهـل مـا لا يُـنـالُ قـريـبُ

(1) صدف عن رأيه: أعرض عنه ومال.

حَـلَـفْـتُ بِـرَكْـبِ الـسّـاجـديـنَ لِـرَبِّـهِـمْ
خـشـوعًـا وفـوقَ الـسّـاجـديـنَ رقـيـبُ
لَـئِـنْ كـانَ بَـرْدُ الـمـاءِ حـرّانَ صـادِيًـا
إلـيَّ حـبـيـبًـا، إنَّـهـا لَـحَـبـيـبُ[1]

وقال أبو زيد:

وكان عُروةُ يأتي حِياضَ الماء التي كانت إبلُ عفراءَ ترِدَها فيُلصِقُ صدرَه بها، فيقال له: مَهلًا، فإنَّك قاتِلٌ نفسك، فاتّقِ اللّه، فلا يقبل، حتى أشرفَ على التَّلِف، وأحسَّ بالموتِ.

فجعل يقول:

بِـيَ الـيـأسُ والـدّاءُ الـهُـيـامُ سُـقِـيـتُـهُ
فـإيّـاكَ عَـنِّـي لا يـكُـنْ بـك مـا بِـيـا

* * *

خبر موته

حَدَّث عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجَشُون، عن أبي السَّائب قال:

أخبرني ابنُ أبي عَتِيق قال: واللّه إنّي لأسيرُ في أرض عُذْرة إذا بامرأةٍ تحمل غلامًا جَزْلًا[2]، ليس يُحَمُل مثلُه، فعجِبتُ لذلكَ، حتى أقبَلَتْ به، فإذا

---

(1) الحران: العطشان.

(2) جزلاً: عظيماً كبيراً.

له لحيةٌ، فدعوتُها فجاءَت، فقلتُ لها: ويحكِ! ما هذا؟

فقالت: هل سمعتَ بعروةَ بنِ حزام؟

فقلت: نعم.

قالت: هذا واللّه عروةُ.

فقلت له: أنت عروة؟ فكلَّمني وعيناه تذرفان وتدوران في رأسه، وقال: نعم أنا واللّهِ القائل:

جَعَلْتُ لِعَرّافِ اليَمامةِ حُكْمَهُ
وعرّافِ حَجْرٍ إنْ هما شَفيانِي

فقالا: نَعَمْ نَشْفي مِنَ الدّاءِ كُلِّهِ
وقاما مع العُوّادِ يَبْتَدِرانِ

فعَفْراءُ أحظى الناسِ عِندي مَوَدَّةً
وَعَفْراءُ عَنّي المُعْرِضُ المُتَواني

قال: وذهبت المرأةُ، فما بَرِحتُ من الماءِ حتى سمعتُ الصَيحةَ، فسألتُ عنها، فقيل: ماتَ عُروةُ بنُ حزامٍ.

قال عبدُ الملك: فقلت لأبي السائب: ومن أيِّ شيءٍ مات؟ أظنُّه شرِق[1].

فقال: سخُنت عيناك[2]، بأيِّ شيءٍ شرِق؟

قلت: بريقه - وأنا أريد العبثَ بأبي السائب- افترى أحدًا يموتُ من الحبِّ؟

---

(1) شرق: غصّ.

(2) سخنت عيناك: أي بكت وذرفت الدموع.

قال: واللّه لا تُفلحُ أبدًا، نعم يموتُ خوفًا أن يتوبَ اللّهُ عليه!!

* * *

حدّث النعمان بن بشير قال:

ولّاني عثمّانُ - رضي الله عنه - صَدقاتِ سعد هُذَيم[1]، وهم: بَليٌّ، وسَلامانُ وعُذرةُ، وضَبَّةُ بن الحارثِ، ووائلٌ: بنو زيد، فلمَّا قبضتُ الصدَقة قسَّمتُها في أهلها، فلمّا فرغتُ وانصرفتُ بالسهمين[2] إلى عثمان - رضي الله عنه- إذا أنا ببيتٍ مُفرَدٍ عن الحيّ، فملت إليه، فإذا أنا بفتىً راقدٍ في فناء البيت، وإذا بعجوُزٍ من ورائه في كِسْرِ[3] البيتِ، فسلَّمتُ عليه، فردَّ عليَّ بصوتٍ ضعيفٍ، فسألتُه: ما لك؟

فقال:

كَأنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بِجَناحِها

عَلى كَبِدي مِن شِدَّةِ الخَفَقانِ

وذكر الأبيات النونيَّةَ المعروفة، ثمّ شهق شهقةً خفيفةً كانت نفسهُ فيها، فنظرتُ إلى وجهه فإذا هو قد قَضى، فقلت: أيّتُها العجوزُ، مَن هذا الفتى منكِ؟

قالت: ابني.

فقلت: إني أراه قد قضى.

فقالت: وأنا واللّه أرى ذلك، فقامت فنظرتْ في وجهِه ثمّ قالت: مات وربِّ محمَّد، قال: فقلت لها: يا أُمَّاه، من هو؟

---

(1) سعد هذيم: أبو قبيلة.

(2) السهم: النصيب أو الحصة.

(3) كسر البيت: جانبه.

فقالت: عُروةُ بن حزام، أحدُ بني ضَبَّة، وأنا أُمُّه، فقلت لها: ما بلغ به ما أرى؟

قالت: الحبُّ، واللَّهِ ما سمعتُ له منذ سنةٍ كلمةً ولا أنَّةً إلا اليومَ، فإنه أقبل عليَّ ثمّ قال:

مَـن كـانَ مِـنْ أُمَّـهـاتِـي بـاكـيًـا أبـدًا
فَـالـيـومَ إنِّـي أُرانـي الـيـومَ مَـقـبـوضـا[1]
يُـسْـمِـعْـنَـنـيـهِ فـإنِّـي غـيـرُ سـامـعِـهِ
إذا عَـلـوتُ رِقـابَ الـقـوم مَـعْـروضـا

قال: فما بَرِحتُ من الحيِّ حتى غسَّلتُه، وكفَّنتُه، وصلَّيتُ عليه، ودفنتُه.

* * *

موت عفراء

وبلغ عفراء خبرُه، فقامتْ لزوجها فقالتْ: قد كان من خبرِ ابن عمي ما كان بَلَغَكَ، وواللَّهِ ما عرفتُ منه قَطُّ إلاّ الحسنَ الجميلَ، وقد مات فيّ وبِسَبَبي، ولا بُدَّ لي من أن أندُبَه وأقيمَ مأتمًا عليه. قال: افْعلي. فما زالت تندُبه ثلاثًا، حتى تُوفِّيت في اليوم الرابع.

وبلغ معاويةَ بن أبي سُفيانَ خبرُهما، فقال: لو علمتُ بحال هَذيْن الحُرَّين الكريمَين لجمعتُ بينَهُما.

* * *

(1) مقبوضاً: ميتاً.

طوافه حول الكعبة

حَدَّث خارجةُ المكِّيُّ، قال:

إنّه رأى عُروةَ بن حزامٍ يُطافُ به حولَ البيت، قال: فدنَوتُ منه، فقلت: مَن أنت؟

فقال: الذي أقول:

أفــي كــلِّ يَــومٍ أنــتَ رامٍ بِــلادَهــا
بِـعَـيْـنَـيـنِ إنـسـانـاهُـمـا غَـرِقـانِ[1]

ألا فـاحـمِـلانِـي بـاركَ الـلّـهُ فـيـكُـمـا
إلـى حـاضِـرِ الـرَّوْحـاءِ ثـم ذَرانـي

فقلتُ له: زَدني، فقال: لا واللّه ولا حرفًا.

وقال أبو صالح: كنتُ مع ابنِ عبّاس بعرفةَ، فأتاه فِتيانٌ يحملون بينهم فتًى لم يبقَ إلاّ خَيالُه، فقالوا له: يا ابْنَ عمِّ رسولِ اللّه، ادْعُ له.

فقال: وما به؟

فقال الفتى:

بِنا من جَوَى الأحزانِ في الصَّدْرِ لَوْعةٌ
تَـكـادُ لـهـا نَـفْـسُ الـشَّـفـيـق تـذوبُ

---

(1) إنسان العين: سوادها.

ولـكـنَّـمـا أبـقـى حُـشـاشـةَ مُـغْـوِلٍ
عَـلـى مـا بِـهِ عُـودٌ هُـنـاكَ صَـلـيـبُ[1]

قال: ثمّ خَفَتَ في أيديهم، فإذا هو قد مات.

فقال ابنُ عَبَّاسٍ:

هـذا قـتـيـلُ الـحـبِّ لا عَـقْـلٌ ولا قَـوَد[2]

ثمّ ما رأيتُ ابن عبّاس سأل اللّه - جلَّ وعزَّ - في عشِيَّته إلاّ العافية، ممَّا ابتُليَ به ذلك الفَتَى، قال: وسألنا عنه فقيل: هذا عُروةُ بنُ حزام.

* * *

(1) الحشاشة: بقية الروح.

(2) العقل: الدية. القود: القصاص.

قصص حبّ من كتاب
«الفَرَج بعد الشّدَّة»

من مكارم المقتدر[1]

حدّث أبو عبد الله البريدي قال: عشقتُ مغنّية في القيان عشقًا شديدًا ، فراسلت مولاتها في بيعها، فاستامت فيها ثلاثة آلاف دينار.

وكنت أعرف من نفسي الملل، فخشيت أن أشتريها فأملّها، فدافعت بذلك، ومضت أيّام، وكانت هي تأتي إلى عندي، وكان يمضي لي معها أطيب عيش.

فانصرفَتْ من عندي يومًا، وكان المقتدر بالله أمر أن تشترى له مغنّيات، وأنا لا أعلم، وكانت الجارية حسنة الوجه جيّدة الغناء، فحملت إلى المقتدر في جملة جوار، فأمر بشرائهنّ كلّهنَ، فاشتريت في جملتهنّ.

وأنفذتُ من غدٍ استدعيها من سيّدتها، فأخبرت بالخبر، فقامت عليّ القيامة، ودخل إلى قلبي من الألم، والاحتراق، والقلق، أمر ما دخل مثله قطّ في قلبي، فضلًا عن عشقي.

وزاد الأمر عليّ، حتى انتهى بي إلى حدّ الوسواس، فامتنعت عن النظر في أمر داري، وتشاغلت بالبكاء، ولم يكن لي سبيل إلى العزاء.

وكنت أكتب - حينئذ - لأمّ المتّقي لله، وهو حَدَثٌ، فتأخّرت عنهم

(1) الفرج بعد الشدّة 4/ 309.

أيّامًا، وأخللت بأمرها، وأنا متوفّر تلك الأيّام على الطواف في الصحاري، لا آكل، ولا أشرب، ولا أتشاغل بأكثر من البكاء والهيمان.

فأنكر المتّقي وأمّه تأخّري، فاستدعاني المتّقي، وخاطبني في شيء من أمره، فوجدني لا أعقل ولا أحصّل ما يقوله، ولا أفهمه.

فسألني عن سبب اختلالي، فصدقته، وبكيت بين يديه، وسألته أن يسأل أباه بيع الجارية عليّ، أو هِبتها لي.

فقال: ما أجسر على هذا .

قال: وزاد عليَّ الأمر، وبطلت.

وبلغ أمّ المتّقي الخبر، فراسلتها أسألها مثلما سألت ابنها، فرثت لي، وحملت نفسها على أن خاطبت السّيدة أمّ المقتدر في أمري.

فقالت لها أمّ المقتدر: ما العجب من الرجل، فإنّ الذي في قلبه من العشق قد أعماه عن الرأي بل العجب منك، كيف وقع لك أنّه يجوز أن يقول أحد للخليفة: انزل عن جاريتك لرجل يعشقها.

فراسلتني أمّ المتّقي بما جرى، فزاد ما بي من القلق.

وكنت لا ألقى أحدًا من الرؤساء في الدولة، كالوزير، وحاشية الخليفة، إلاّ وأقصدهم، وأبكي بين أيديهم، وأحدّثهم حديثي، وأسألهم مسألة الخليفة في تسليم الجارية إليّ، إمّا ببيع، أو هبة.

فمنهم من ينكر عليّ ويوبّخني، ومنهم من يرثي لي ويعذرني، ومنهم من يشير عليّ بالإمساك، ومنهم من يقول: إذا علم الخليفة هذا، وأنّك تتعرّض لحرمه، كان في هذا إتلاف نفسك، وأنا ملازم أبوابهم، وتركت خدمة صاحبي.

إلى أن طال عليّ الأمر وعلى المتّقي وأمّه، لعدم ملازمتي الباب ووضعت من محلّي، وبطل أمر داري وضيعتي، وأمور صاحبي.

إلى أن طال هذا على المتّقي وأمّه، فطلبا كتابًا يصرفاني به.

وبلغني الخبر، وقد كنت أيست من الجارية، فعذلت نفسي، وقلت: ليس بعد هذه الصرف إلاّ الفقر والنكبة، وذهاب الخير والنفس، ولو كنت اشتريت هذه الجارية، لكنت الآن قد مللتها، فَلِمَ أفقر نفسي، ولِمَ أقطع تصرفي؟

وأقبلت أعظ نفسي، وأسلّيها ليلتي كلّها، إلى أن طاوعتني على الصبر.

وباكرت دار المتّقي، وبدأت في النظر في أموره، ورأوا منّي خلاف ما تقدّم، فسرّوا بذلك، وقالوا: أنت أحبّ إلينا من الغريب نستأنفه، فضمنت لهم الملازمة وتمشية الأمور.

فأقمت على ذلك مدّة، ثمّ اشتقت إلى الشرب، وقد كنت فقدته وهجرته منذ فقدت الجارية إلى ذلك اليوم.

فقلت للغلام: قُم، امض، وأصلح لنا مجلسًا للشرب، وأدع أصحابنا أعني أصدقائي الذين يعاشرونني، للرواح إليّ، ولا تَدْعُ غناءً، فلمّا انقضى شغلي عدت إلى داري، واجتمع أصدقائي، فصوّبوا رأيي، وجلسنا نشرب، ونتحدّث، ونلعب بالشطرنج.

فقالوا: لو دعوت لنا مغنّيًا.

فقلت: أخاف أن أذكر به أمري مع الجارية.

فجلسوا عندي إلى أن صلّيت العشاء الآخرة، وانصرفوا، وجلست وحدي أشرب القدح بعد القدح إلى أن مضت قطعة من الليل، وإذا أنا ببابي يدقّ دقًّا عنيفًا.

فقال بوّابي: من هذا؟

قالوا: خدم من دار الخليفة أمير المؤمنين.

فقمت: ولـم أشكّ أنّ حديثي قد اتّصل به فأنكره، وقال: مثل هذا لا يصلح أن يكون كاتبًا لحرمة[1]، ولا مدبّرًا أمر غلام حَدَثٍ، وقد أمر بالقبض عليّ.

فقمت أمشي لأخرج من باب آخر كان لي، وأستتر، فإذا الخدم قد دخلوا، ومعهم بغلة عليها عمّارية، وشموع، وإذا قد أنزلوا من العمّارية جاريتين، إحداهما عشيقتي، فبهتُّ.

فقال لي أحد الخدم، وهو كالرئيس عليهم: مولانا أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: عرفت خبرك مع الجارية في هذه الساعة، فرحمتك، وقد وهبتها لك مع جميع مالها، وتركها الخادم ومضى.

ودخلت معها عدّة أحمال عليها الأثقال من صنوف الثياب، والفرش، والآلات، والقماش، وعدّة جوار، وتركوا ذلك عندي، وانصرفوا.

فأخذت بيد معشوقتي، وأدخلتها المجلس، فلمّا رأت الشراب والمجلس معبّأ، قالت: سلوت عنّي، وشربت بعدي.

فحلفت لها أنّي ما شربت نبيذًا منذ فارقتها إلاّ في هذا اليوم، وحدَّثتها حديثي بطوله.

وقلت لها: ما السبب في مجيئك؟ وما جرى؟

فقالت: اعلم أنّ الخليفة لم يرني- منذ اعترضني وأمر بشرائي - إلاّ

(1) الحرمة: الأهل والزوجة.

الليلة، وكان قد اتّصل مزح السيّدة معي، فأنّها كانت استدعتني منذ مدّة، وسألتني عن خبري معك، فأخبرتها.

ثمّ قالت: هل تحبّينه؟

فقلت: نعم، حبًا شديدًا.

فتعجَّبَتْ من ذلك، وقالت: ثقّلنا عليك وعلى محبوبك، ولكن يكون الخبر إن شاء الله تعالى، ووعدتني الجميل التام، والوعد الحسن.

فلمّا كان هذه الليلة، قعد الخليفة يشرب مع الجواري والسّيدة حاضرة، فاستدعيت، وغنّيت.

فقال لي الخليفة: إن كُنت تحسنين الصوت الفلاني، فغنّيه، وكان صوتك عليّ، فغنّيته، وتمثّلت لي صورتك، وذكرت شربي معك، فلم أملك دموعي، حتى جرت.

فقال المقتدر: ما هذا؟ فتحيّرت، وجزعت، ونظرتُ إلى السَّيدة، فضحكَتْ، وضحك الجواري.

فقال المقتدر: ما القصّة؟ فدافعته السَّيدة.

فقال: بحياتي أصدقيني.

فقالت: على أن لا تؤذي الجارية، ولا غيرها.

فقال: نعم، وحياتك.

فحدّثته الحديث، فلمّا استوفاه، قال لي: يا جارية، الأمر هكذا؟ إنَّما بكيت من عشق ابن ميمون؟ فسكتُّ.

فقال: إن صدقتني وهبتك له.

فقلت: نعم.

فأقبل على أمّه، فقال: ما هو بكثير إن وهبتها لخادم لنا.

فقالت: قد - والله - أردتُ أن أسألك هذا، ولكن إن تفضلت به ابتداء منك، كان أحسن.

فقال لبعض الخدم: خذ هذه الجارية، وجميع ما كان سلّم إليها في حجرتها من جوار، وقماش، واحمله إلى دار ابن ميمون، كاتب ابني إبراهيم، وأقره سلامي، وعرّفه أنّي قد وهبت ذلك كلّه له.

فلمّا قمت، تصايحوا: قد جاء فرجك، وبلغت مناك، فقمت إلى حجرتي، وجمعت ما ترى، وحملته إليك.

قال: فشكوت الله عزّ وجلّ على ذلك، وجلست معها وما شيل[1] ما في مجلسي، حتى اجتمعنا، وجلست معها فيه، وغنّت.

وبكّرت من غدٍ نشيطًا، مسرورًا، أشكر السّيدة، وأمّ المتّقي، وأدعو لهما، وأقامت الجارية عندي، إلى أن ماتت.

* * *

(1) شيل: رُفع.

فارق جاريته ثمّ اجتمع شملهما[1]

كان ببغداد رجل من أولاد النِعَم، ورث من أبيه مالًا جليلًا، وكان يتعشّق جارية. وأنفق عليها شيئًا كثيرًا، ثمّ اشتراها، وكانت تحبّه ويحبّها، فلم يزل ينفق ماله عليها إلى أن أفلس.

فقالت له الجارية: يا هذا، قد بقينا كما ترى، فلو طلبت معاشًا نقتات منه.

قال: فلم يجد له صناعة غير الغناء، إذ كان الفتى من محبّته للجارية، وإحضاره المغاني إليها، ليزيدوها في صنعتها، قد تعلّم الضرب والغناء، وخرج صالحًا في طبقة الغناء والحذق فيه.

فشاور بعض معارفه، فقال: ما أعرف لك معاشًا أصلح من أن تغنّي للناس، وتحمل جاريتك إليهم فتأخذ على هذا الكثير، ويطيب عيشك.

فأنف من ذلك، وعاد إليها، فأخبرها بما أشير عليه به، وأعلمها أنّ الموت أشهى عنده من هذا، فصبرت معه على الشدّة مدّة.

ثمّ قالت: قد رأيت لك رأيًا.

فقال: قولي.

قالت: تبيعني، فإنّه يحصل لك من ثمَني ما تعيش به عيشًا صالحًا،

(1) الفرج بعد الشدّة 4/ 316.

وتخلص من الشدّة، وأحصل أنا في نعمة، فإنّ مثلي لا يشتريها إلاّ ذو نعمة.

فحملها إلى سوق النخّاسين، فكان أوّل من اعترضها فتى هاشميّ من أهل البصرة، ظريف، قد ورد بغداد للّعب والتمتّع، فاشتراها بألف وخمسمائة دينار عينًا.

قال الرجل: فحين لفظت بالبيع، وقبضت الثمّن، ندمتُ، واندفعت في بكاء عظيم، وحصلت الجارية في أقبح من صورتي، وجهدتُ في الإقامة، فلم يكن على ذلك سبيل.

فأخذتُ الدنانير في الكيس، وأنا لا أدري إلى أين أذهب، لأنّ بيتي موحش منها، وورد عليّ من اللطم والبكاء ما هوّسني.

فدخلت مسجدًا: وجلست فيه أبكي، وأفكّر فيما أعمل، فحملتني عيني، فتركت الكيس تحت رأسي كالمخدّة، ونمت.

فما شعرت إلاّ بإنسان قد جذبه من تحت رأسي فانتبهت فزعًا، فإذا بإنسان قد أخذ الكيس، ومرّ يعدو، فقمت لأعدو وراءه، فإذا رجلي مشدودة بخيط في وتد مضروب في آخر المسجد، فإلى أن تخلّصت من ذلك، غاب الرجل عن عيني.

فبكيتُ، ولطمتُ، ونالني أمر أشدّ من الأوّل، وقلت: قد فارقت من أحبّ، وبعته، لأستغني بثمَنه عن الصدقة، فقد صرت الآن فقيرًا، مفارقًا لمن أحبّ.

فجئت إلى دجلة، ولففت وجهي برداء كان على رأسي، ولم أكن أحسن أسبح، ورميت بنفسي في الماء لأغرق.

فظنّ الحاضرون أنّ ذلك لغلط وقع عليّ، فطرح قومٌ نفوسهم خلفي،

فأخذوني، وسألوني عن أمري، فأخبرتهم، وبقيت منهم بين راحم ومستجهل.

إلى أن خلا بي شيخ منهم، فأخذ يعظني، ويقول: يا هذا، ذهب مالك، فكان ماذا حتى تتلف نفسك، أَوَما علمت أنّ فاعل هذا في نار جهنَّم. ولست أوّل من افتقر بعد غنى؟ فلا تفعل، وثق بالله تعالى.

ثمّ قال لي: أين منزلك؟

فقلت: في الموضع الفلاني.

فقال: قم معي إليه، وما فارقني حتى حملني إلى منزلي، وما زال يؤنسني، ويعظني، إلى أن بان له السكون فيّ، فشكرته.

وانصرف، فكدت أن أقتل نفسي لوحشة منزلي عليّ، ثمّ ذكرت النار والآخرة، فخرجت من بيتي هاربًا، إلى بعض أصدقائي القدماء في حال سعادتي، فأخبرته خبري، فبكى رقّة لي، وأعطاني خمسين درهمًا.

وقال: اقبل رأيي، واخرج الساعة من بغداد، واجعل هذه النفقة لك إلى حيث وجدتَ قلبك يساعدك إلى قصده، وأنت من أولاد الكتّاب، وخطّك جيّد، وأدبك صالح، فاقصد بعض العمّال، واطرح نفسك عليه، فأقلّ ما في الأمر أن تصير محرّرًا بين يديه، وتعيش معه، ولعلّ الله أن يصنع لك صنعًا.

فعملت على هذا، وجئت إلى الكتبيّين[1]، وقد قوي في نفسي أن أقصد واسط، وكان لي فيها أقارب، فاجعلهم ذريعة لي إلى التصرّف مع بعض عمّالها.

---

(1) الكتبيّون: جميع كتبيّ، وهو الذي صناعته الكتب.

فحين جئت إلى الكتبيّين، إذا بزلاّل[1] مقدّم، وخزانة كبيرة[2] ينقل إلى الزّلال، وإلى الخزانة.

فسألت: من يحملن إلى واسط؟

فقال أحد ملاّحي الزّلال: نحن نحملك بدرهمين إلى واسط، ولكن هذا الزّلال لرجل هاشمي من أهل البصرة، ولا يمكننا من حملك معه على هذه الصورة، ولكن تلبس ثياب الملاّحين، وتجلس معنا كأنّك واحد منّا.

فحين رأيت الزّلال، وسمعت أنّه لرجل هاشمي، من أهل البصرة، طمعت أن يكون مشتري جاريتي، فأتفرّج بسماعها إلى واسط.

فدفعت الدرهمين إلى الملاّح، وعدتُ فاشتريت لي جبّة من جباب المّلاحين فلبستها، وبعت تلك الثياب التي كانت عليّ، وأضفتها إلى ما معي من النفقة، واشتريت خبزًا وإدامًا، وجلستُ في الزّلال.

فما كان إلاّ ساعة حتى رأيت جاريتي بعينها، ومعها جاريتان تخدمانها، فحين رأيتها سهل عليّ ما كان بي، وما أنا عليه.

وقلت: أسمع غناءها، وأراها، من هاهنا إلى البصرة، واعتمدت على أن أجعل قصدي إلى البصرة، وطمعت في أن أداخل مولاها، فأصير أحد ندمائه.

وقلت: ولا تخليني هي من الموادّ، فإنّي واثق بها.

ولم يكن بأسرع من أن جاء الفتى الذي اشتراها راكبًا، ومعه عدّة ركبان، فنزلوا في الزّلال وانحدروا.

---

(1) الزلاّل: سفينة.

(2) الخزانة: سفينة تقطر مع الزلاّل.

فلمّا صاروا بكلواذى، أخرج الطعام، فأكل هو والجارية، وأكل الباقون على سطح الزّلال، وأطعموا الملاّحين.

ثمّ أقبل على الجارية، فقال لها: إلى كم هذه المدافعة عن الغناء، وهذا الحزن والبكاء، ما أنت أوّل من فارق مولاه، فعلمت ما عندها من أمري.

ثمّ ضربت ستارة في جانب الزّلال، واستدعى الّذين في سطحه، وجلس معهم خارج الستارة، فسألت عنهم، فإذا هم إخوته، وأخرجوا الصواني، ففرّقوها عليهم، وأحضروا النبيذ.

وما زالوا يترفّقون بالجارية، إلى أن استدعت العود، فأصلحته، وجسّت أوتاره، ثمّ اندفعت تغنّي:

بانَ الخليطُ بِمَنْ عَرَفْتَ فَأَدْلَجوا
عَمْدًا لِقَتْلِكَ ثُمَّ لم يَتَحَرَّجوا
وَغَدَتْ كَأَنَّ على تَرائِبِ نَحْرِها
جَمْرَ الغَضا في ساجَةٍ[1] يَتَأَجَّجُ

قال: ثمّ غلبها البكاء، وقطعت الغناء، وتنغّص على الفتية سرورهم.

ووقعت أنا مغشيًّا عليّ، فظن القوم أنّي قد صُرِعْتُ، فأذّن بعضهم في أذني[2]، وصبّ عليّ الماء، فأفقت بعد ساعة.

(1) الساجة: الأداة المدوّرة يُحفظ فيها الجمر وغيره.

(2) كان الناس، في ذلك العصر، يعتقدون أنّ المصروع يصرعه الشيطان، فإذا أذّنَّ أحد في إذنه، تركه الشيطان، وفرّ هارباً من ذكر الله، وكانوا يعتقدون أيضاً أنّ المصاب بمرض عقلي، يحلّ الشيطان في بدنه.

وما زالوا يداورونها، ويرفقون بها، ويسألونها الغناء، إلى أن أصلحت العود، واندفعت تغنّي:

فوقفتُ أنسبُ بالّذينَ تَحَمَّلُوا
وَكَأنَّ قَلبي بِالشّفارِ يُقَطَّعُ
فَدَخَلْتُ دارَهُمُ أُسائِلُ عَنْهُمُ
والدارُ خالِيةُ المَنازِلِ بَلْقَعُ

ثمّ شهقت فكادت تتلف، وارتفع لها بكاء عظيم، وصعقت أنا، فتبرّم بي الملاّحون، وقالوا: كيف حملنا هذا المجنون معنا.

فقال بعضهم: إذا بلغتم بعض القرى فأخرجوه وأريحونا منه.

فجاءني أمر عظيم أعظم من كلّ شيء دفعت إليه، ووضعت في نفسي التصبّر، والحيلة في أن أعملها بمكاني من الزّلال، لتمنع من إخراجي.

وبلغنا إلى قرب المدائن، فقال صاحب الزّلال: اصعدوا بنا إلى الشطّ، فطرحوا إلى الشطّ، وخرج الجماعة، وقد كان المساء قد قرب، وصعد أكثر الملاّحين يتغوّطون[1]، فخلا، وكان الجواري فيمن صعد إلى مستراح ضرب لهنّ.

فمضيت سارقًا نفسي حتى صرت خلف الستارة، فغيّرت طريقة العود عمّا كانت عليه، إلى طريقة أخرى، ورجعت إلى موضعي من الزّلال.

وفرغ القوم من حاجاتهم في الشطّ، ودفعوا[2] والقمر منبسط.

فقالوا لها: بالله يا ستّي، غنّينا شيئًا، ولا تنغّصي علينا عيشنا.

---

(1) يتغوّطون: يقضون حاجاتهم.

(2) دفعوا: يعني حرّكوا السفينة للمسير.

فأخذت العود فجسته، فشهقت شهقة كادت تتلف، وقالت: والله، قد أصلح هذا العود مولاي، على طريقة من الضرب كان بها معجبًا، وكان يضربها معي، والله إنّه معنا في الزّلال.

فقال لها صاحبها: والله، لو كان معنا ما امتنعنا من عشرته، فلعلّه أن يخفّ بعض ما بك، فننتفع بغنائك.

فقالت: ما أدري ما تقولون، هو - والله - معنا.

فقال الرجل للملاّحين: ويحكم، حملتم معنا إنسانًا غريبًا؟

فقالوا: لا.

فأشفقت أن ينقطع السؤال، فصحت: نعم، هوذا أنا.

فقالت: كلام مولاي، والله، وجاء بي الغلمان إلى الرجل.

فلمّا رآني عرفني، وقال: ويحك، ما هذا الذي أصابك؟ وما أدّاك إلى هذه الحال؟ فصدقته عن أمري، وبكيت، وعلا نحيب الجارية من خلف الستارة، وبكى هو وإخوته بكاءً شديدًا، رقّةً لنا.

ثمّ قال: يا هذا، والله، ما وطئت هذه الجارية، ولا سمعت منها غناء قبل هذا اليوم، وأنا رجل موسّع عليّ والحمد لله، وقدمت إلى بغداد لسماع الغناء، وطلب أرزاقي من الخليفة، وقد بلغت من الأمرين ما أردت.

فلمّا عوّلت على الرجوع إلى وطني، أحببت أن أستصحب معي مغنّية من بغداد، فاشتريت هذه الجارية، لأضمّها إلى عدّة مغنّيات عندي بالبصرة.

وإذ كنتما على هذه الحالة، فأنا - والله - أغتنم المكرمة والثواب فيكما، وأشهد الله تعالى على أني إذا صرت إلى البصرة أعتقها وأزوّجك إيّاها، وأجري عليكما ما يكفيكما، على شريطة إن أجبتني إليها.

قلت: وما هي؟

قال: أن تحضرها عندي متى أردنا الغناء، تغنّي بحضورك وتنصرف بانصرافك إلى دار أفرغتها لكما، وقماش أعطيكما إيّاه.

قلت: يا سيّدي، وكيف أمنع من هو المعطي، وأبخل على من يردّ حياتي عليّ، بهذا المقدار، وأخذت أقبّل يده، فمنعني.

ثـمّ أدخل رأسه إلى الجارية، وقال: يرضيك هذا؟ فأخذت تدعو له وتشكره.

فاستدعى غلامًا له، وقال له: خذْ بيد هذا الرجل، وغيّر ثيابه، وبخّره، وقدّم له ما يأكله، وجئنا به، فأخذني الغلام، وفعل بي ذلك، وعدتُ، فَتُرِكَتْ بين يديّ صينية.

فاندفعت الجارية تغنّي بنشاط، واستدعت النبيذ، وشربَتْ، وشربنا، وأخذت أقترح عليها الأصوات الجياد، فتضاعف سرور الرجل بها.

وما زلنا على ذلك أيّامًا، حتى وصلنا نهر معقل، ونحن سكارى، فشدّ الزّلال في الشطّ.

وأخذتني بولة الماء في الليل، فصعدت على ضفة نهر معقل[1] لأبول، فحملني السكر على النوم.

ودفع الزّلال وأنا لا أعلم، وأصبحوا فلم يجدوني، ودخلوا البصرة، ولم أنتبه أنا إلاّ بحمي الشمس[2]، فجئت إلى الشطّ، فلم أر لهم عينًا ولا أثرًا.

وكنت قد أجللت الرجل أن أسأله بمن يعرف؟ وأي داره من البصرة؟

---

(1) نهر معقل: نهر معروف بالبصرة، ينسب إلى معقل بن يسار الصحابي.

(2) حمي الشمس: حرّها.

واحتشمت غلمانه أن أسألهم فبقيت على شاطئ نهر معقل، كأوّل يوم بدأت بي المحنة، وكأنّ ما كنت فيه منام.

فاجتازت بي سماريّة، فقعدت فيها، ودخلت إلى البصرة، وما كنت دخلتها قط، فنزلت خانًا، وبقيت متحيّرًا، لا أدري ما أعمل، ولم يتوجّه لي معاش.

إلى أن اجتاز بي إنسان أعرفه، فتبعته لأكشف له حالي. ثمّ أنفت من ذلك، ودخل الرجل إلى منزله، فعرِفته، وجئت إلى بقّال كان على باب الخان الذي نزلته، فأعطيته دانقًا، وأخذت منه ورقة، وجلست أكتب رقعة إلى رجل.

فاستحسن البقّال خطّي، ورأى رثاثة زيّي، فسألني عن أمري، فأخبرته أني رجل ممتحن[1] فقير، قد تعذّر عليّ التصرّف، وما بقي معي شيء، ولم أشرح له أكثر من هذا.

فقال لي: تعمل معي كلّ يوم بنصف درهم، وطعامك وكسوتك عليّ، وتضبط حساب دكّاني؟

فقلت: نعم.

فقال: اصعد.

فخرقت الرقعة، وصعدت، فجلست معه، أدبّر أمره، وضبطت دخله وخرجه، وكان غلمانه يسرقونه، فأدّيت له الأمانة.

فلمّا كان بعد شهر، رأى الرجل دَخْلَهُ زائدًا، وخَرْجَهُ ناقصًا، فحمدني، وبقيت معه كذلك شهرًا آخر، ثمّ جعل رزقي، في كلّ يومًا درهمًا.

---

(1) الممتحن: المصاب بالمحنة، أي البليّة.

ولم يزل حالي معه يقوى، إلى أن حال الحول، وقد بان له الصلاح في أمره، فدعاني إلى أن أتزوّج بابنته، ويشاركني، ففعلت.

ودخلت بزوجتي، ولزمت الدكّان، وحالي يقوى، إلاّ أنّني في خلال ذلك، منكسر النفس، ميّت النشاط، ظاهر الحزن.

وكان البقّال ربما شرب فيجرّني إلى مساعدته، فامتنع، وأظهر له أنّ ذلك بسبب حزني على موتى لي.

واستمرّت بي الحال على هذا سنتين وأكثر.

فلمّا كان في بعض الأيام، رأيت الناس يجتازون بفاكهة، ولحم، ونبيذ، اجتيازًا متّصلًا، فسألت عن ذلك.

فقيل لي: اليوم الشعانين[1]، يخرج فيه أهل الظرف واللعب، بالطعام والشراب، والقيان إلى الأبلّة، فيرون النصارى، ويشربون، ويفرحون.

فدعتني نفسي إلى التفرّج، وقلت: لعليّ أصل إلى أصحابي، أو أقف لهم على خبر، فإنّ هذا من مظانّهم[2].

فقلت لحَمِيّي[3]: أريد أن أنظر إلى هذا المنظر.

فقال: شأنك وما تريد، فأصلَحَ لي طعامًا، وشرابًا، وسلّم إليّ غلامًا وسفينةً.

فخرجت وركبت السفينة، وبدأت بالأكل، ثمّ قدّمت آنية الشراب، وجلست أشرب حتى وصلت الأبلّة، وأبصرت الناس وقد ابتدأوا ينصرفون.

---

(1) الشّعانين، والسعانين: عيد من أعياد النصارى، يحلّ يوم الأحد الذي قبل الفصح.

(2) المظانّ، جمع مظنّة: الموضع الذي يظنّ وجوده فيه.

(3) الحمو: أبو زوج المرأة، وأبو امرأة الرجل.

فإذا بالزّلال بعينه، في أوساط الناس، سائرًا في نهر الأبلّه، فتأمّلته، فإذا أصحابي على سطحه، ومعهم عدّة مغنّيات.

فحين رأيتهم لم أتمالك فرحًا، فطرحت إليهم، فحين رأوني عرفوني، فكبّروا، وأخذوني إليهم، وسلّموا عليّ.

وقالوا: ويحك، أنت حيّ؟ وعانقوني، وفرحوا بي، وسألوني عن قصّتي، فأخبرتهم بها، من أولها إلى آخرها، على أتمّ شرح.

فقالوا: إنّا لمّا فقدناك في الحال، وقع لنا أنّك بالسكر وقعت في الماء فغرقت، ولم نشكّ في ذلك، فخرّقت الجارية ثيابها، وكسرت العود، وجزّت شعرها، وبكت، ولطمت، فما منعناها من شيء من هذا.

ووردنا البصرة، فقلنا لها: ما تحبين أن نعمل معك؟ فقد كنّا وعدنا مولاك وعدًا، تمنعنا المروءة من استخدامك بعده في حالٍ أو سماعٍ.

فقالت: يا مولاي لا تمنعني من القوت اليسير، ولبس الثياب السواد، وأن أصنع قبرًا في بيت من الدار، وأجلس عنده، وأتوب من الغناء، فمكنّاها من ذلك، فهي جالسة عنده إلى الآن.

وأخذوني معهم، فحين دخلت، ورأيتها بتلك الصورة، ورأتني شهقت شهقةً عظيمة، فما شككت في تلفها، واعتنقتها، فما افترقنا ساعة طويلة.

ثمّ قال لي مولاها: خذها.

فقلت: بل تعتقها وتزوّجني بها، كما وعدتني.

ففعل ذلك، ودفع لنا ثيابًا كثيرة، وفرشًا، وقماشًا، وحمل إليّ خمسمائة دينار.

وقال: هذا قدر ما أردت أن أجريه عليكم في كلّ شهر من أوّل شهر

دخولي إلى البصرة، وقد اجتمع في طول هذه المدّة، والجراية في كلّ شهر غير هذا، وشيء آخر لكسوتك، وكسوة الجارية والشرط في المنادمة وسماع الجارية من وراء الستارة باقٍ، وقد وهبت لك الدار الفلانيّة، وهذه مفاتيحها.

فأخذت المفاتيح، وأتيت إلى الدار، فوجدتها مفروشة بأنواع الفرش، وإذا بذلك الفرش والقماش الذي أعطيته فيها، والجارية.

فسررت بذلك سرورًا عظيمًا، وجئت إلى البقّال، فحدّثته حديثي، وطلّقت ابنته، ووفّيتها صداقها.

وأقمت مع الجارية سنين، وصرت ربّ ضيعة ونعمة، وصار حالي إلى قريب مما كنت عليه أوّلًا.

وأنا أعيش كذلك مع جاريتي، إلى الآن.

* * *

ابن أبي حامد صاحب بيت المال يحسن إلى صيرفي(1)

قال مؤلّف هذا الكتاب: وجدت هذا الخبر مستفيضًا ببغداد، وأخبرت به على جهات مختلفة، وهذا أبينها، وأصحّها إسنادًا، إلاّ أنني أذكر بعض الطرق الأخرى التي بلغتني: حدّثني أحمد بن عبد الله، قال: حدّثني شيخ من دار القطن ببغداد، قال:

كان لأبي بكر بن أبي حامد مكرمة طريفة، وهي أنّ رجلًا يعرف بعبد الواحد ابن فلان الصيرفي، باع جاريته، وكان يهواها، على أبي بكر بن أبي حامد - يعني صاحب بيت المال- بثلثمائة دينار.

فلمّا جاء الليل، استوحش لها وحشة شديدة، ولحقه من الهيمان، والقلق، والجنون، والأسف على فراقها، ما منعه من النوم، ولحقه من البكاء والسهر، ما كادت تخرج نفسه معه.

فلمّا أصبح، خرج إلى دكّانه يتشاغل بالنظر في أمره، فلم يكن له إلى ذلك سبيل.

وزاد عليه القلق والشوق، فأخذ ثمَن الجارية، وجاء إلى أبي بكر بن أبي

---

(1) الفرج بعد الشدّة 4/ 349.

حامد، فدخل عليه، ومجلسه حافل، فسلّم، وجلس في أخريات الناس، إلى أن تقوّضوا[1].

فلمّا لم يبق غيره، أنكر ابن أبي حامد حاله، فقال له: إن كانت لك حاجة فاذكرها.

فسكت، وجرت دموعه، وشهق.

فرفق به ابن أبي حامد وقال له: قل، عافاك الله، ولا تستح.

فقال له: بعتُ أمس، جارية كانت لي، وكنتُ أحبّها، واشتريت لك - أطال الله بقاءك- وقد أحسست بالموت أسفًا على فراقها.

وأخرج الثمَن فوضعه بحضرته، وقال له: أنا أسألك أن تردّ عليّ حياتي، بأخذ هذه الدنانير، وإقالتي من البيع.

قال: فتبسّم ابن أبي حامد، وقال له: لمّا كانت بهذا المحلّ من قلبك لِمَ بعتها؟

فقال: أنا رجل صيرفي، وكان رأس مالي ألف دينار، فلمّا اشتريتها، تشاغلتُ بها عن لزوم الدكّان، فبطل كسبي، وكنتُ أنفق عليها من رأس المال نفقة لا يحتملها حالي، فلمّا مضت مدّة، خشيت الفقر، ونظرت، فإذا أنا لم يبق معي من رأس المال إلاّ الثلث أو أقلّ، وصارت تطالبني من النفقة، بما لو أطعتها فيه، ذهبت هذه البقيّة، وحصلت على الفقر.

فلمّا منعتها، ساءت أخلاقها ونغّصت عيشي، فقلت أبيعها، وأدير ثمنها فيها اختلّ من حالي، وتستقيم عيشتي، وأستريح من أذاها، وأتصبّر على فراقها، ولم أعلم أنّه يلحقني هذا الأمر العظيم، وقد آثرت الآن الفقر، وأن

---

(1) تقوّض البناء: تهدّم، وتقوّض المجلس: تفرّق الجلساء.

تحصل الجارية عندي، أو أن أموت، فهو أسهل عليّ مما أنا فيه.

فقال ابن أبي حامد: يا فلان. فجاء خادم أسود.

فقال له: أخرج الجارية التي اشتريت لنا بالأمس.

قال: فأخرجت جاريتي.

فقال: يا بنيّ، إنّ مثلي لا يطأ قبل الاستبراء، ووالله، ما وقعت عيني على الجارية - منذ اشتريتْ- إلاّ الساعة، وقد وهبتها لك فخذها، وخذ دنانيرك، بارك الله لك فيهما.

ثمّ قال للخادم: هات ألف درهم، فجاء بها.

فقال للجارية، قد كنت عوّلت على أن أكسوك، فجاء من أمر مولاك ما رأيت ولم أر من المروءة مَنْعَهُ منك، فخذي هذه الدراهم، واتّسعي بها في نفقتك، ولا تحمّلي مولاك ما لا يطيق، فتحصلين عند من لا يعرف قدرك كمعرفته، ولك عليّ ألف درهم في كلّ سنة، يجيء مولاك فيأخذها لك، إذا شكرك، ورضي طريقتك.

قال: فقام الرجل، وقبّل يديه، وجعل يبكي، ويدعو له.

ولم يزل المال واصلًا إليه في كلّ سنة، حتى مات ابن أبي حامد.

* * *

أقسم أن يغسل يده أربعين مرّة إذا أكل زيرباجة[1]

حدَّث بعضهم قال: حضرت عند صديق لي من البزّازين، وكان مشهورًا، في دعوة، فقدّم في جملة طعامه، زيرباجة[2]، ولم يأكلها فامتنعنا من أكلها.

فقال: أحبّ أن تأكلوا منها، وتعفوني من أكلها، فلم ندعه حتى أكل.

فلمّا غسلنا أيدينا، انفرد يغسل يده، ووقف غلام يعدّ عليه الغسل، حتى قال له: قد غسلت يدك أربعين مرّة، فقطع الغسل.

فقلنا له: ما سبب هذا ؟ فامتنع، فألححنا عليه.

فقال: مات أبي وسنّي نحوًا من عشرين سنة، وخلّف عليّ حالًا صغيرة، وأوصاني قبل موته بقضاء ديون عليه، وملازمة السوق، وأن أكون أوّل داخل إليه، وآخر خارج منه، وأن أحفظ مالي.

فلمّا مات، قضيت دينه، وحفظت ما خلّفه لي، ولزمت الدكّان، فرأيت في ذلك منافع كثيرة.

فبينا أنا جالس يومًا ولم يتكامل السوق، وإذا بامرأة راكبة على حمار،

(1) الفرج بعد الشدّة 4/ 358

(2) الزيرباجة: طعام يُصنع من اللحم والحمص واللوز المقشور وغيره.

وعلى كفله[1] منديل دبيقي[2]، وخادم يمسك بالعنان، فنزلت عندي.

فأكرمتها، ووثبت إليها، وسألتها عن حاجتها، فذكرت ثيابًا.

فسمعت - والله- نغمةً، ما سمعت قط أحسن منها، ورأيت وجهًا لم أر مثله، فذهب عنّي عقلي، وعشقتها في الحال.

فقلت لها: تصبرين حتى يتكامل السوق، وآخذ لك ما تريدين، ففعلَتْ، وأخذت تحادثني، وأنا من الموت عشقًا لها.

وخرج الناس، فأخذت لها ما أرادت، فجمعته، وركَبتْ ولم تخاطبني في ثمنه بحرف واحد، وكان ما قيمته خمسة آلاف درهم.

فلمّا غابت عنّي أفقت، وأحسست بالفقر، فقلت: محتالة، خدعتني بحسن وجهها، ورأتني حَدَثًا، فاستغرّتني[3]، ولم أكن سألتها عن منزلها، ولا طالبتها بالثمَن، لدهشتي بها.

فكتمت خبري لئلا افتضح، وأتعجّل المكروه، وعوّلت على غلق دكّاني، وبيع كلّ ما فيها، وأوفي الناس ثمَن متاعهم، وأجلس في بيتي مقتصرًا على غلّة يسيرة من عقار كان خلّفه لي أبي.

فلمّا كان بعد أسبوع، إذا بها قد باكرتني، ونزلَتْ عندي، فحين رأيتها أنسيت ما كنت فيه وقمت لها.

فقالت: يا فتى، تأخّرنا عنك، وما شككنا أنّا قد روّعناك، وظننت أنّا قد احتلنا عليك.

---

(1) الكفل: بالفتح، العجز.

(2) الدبيقي: ثياب تنسب إلى دبيق، مدينة بمصر.

(3) الغرّ: الشاب الذي لا خبرة له، والاستغرار: الخديعة باستغلال الغرّة والجهل.

فقلت: قد رفع الله قدرك عن هذا.

فاستدعت الميزان، فوفّتني دنانير قدر ما قلت لها عن ثَمَن المتاع، وأخرجَتْ تذكرة[1] بمتاع آخر.

فأجلستها أحادثها، وأتمتّع بالنظر إليها إلى أن تكامل السوق، وقمت، ودفعت إلى كلّ إنسان ما كان له، وطلبت منهم ما أرادت، فأعطوني، فجئتها به، فأخذته وانصرفت، ولم تخاطبني في ثَمَنه بحرف.

فلمّا غابت عنّي ندمت، وقلت: المحنة هذه ، أعطتني خمسة آلاف درهم، وأخذت منّي متاعًا بألف دينار، والآن إن لم أقع لها على خبر، فليس إلاّ الفقر، وبيع متاع الدكّان، وما قد ورثته من عقار.

وتطاولت غيبتها عنّي أكثر من شهر، وأخذ التجّار يشدّدون عليّ في المطالبة، فعرضت عقاري، وأشرفت على الهلكة.

فأنا في ذلك، وإذا بها قد نزلت عندي، فحين رأيتها زال عنّي الفكر في المال، ونسيت ما كنت فيه، وأقبلت عليّ تحادثني، وقالت: هات الطيّار[2]، فوزنت لي بقيمة المتاع دنانير.

فأخذت أطاولها[3] في الكلام، فبسطتني، فكدت أموت فرحًا وسرورًا، إلى أن قالت: هل لك زوجة؟

فقلت: لا والله يا سيّدتي، وما أعرف امرأة قطّ، وبكيت.

فقالت: ما لك؟

---

(1) التذكرة: قائمة تسجّل فيها الأشياء المطلوبة.

(2) الطيّار: ميزان لطيف توزن به الأشياء الدقيقة كالدنانير.

(3) المطاولة: إطالة الحديث والانبساط في الخطاب.

قلت: خير. وهبتها ثمّ قمت وأخذت بيد الخادم الذي كان معها، وأخرجت له دنانير كثيرة، وسألته أن يتوسّط الأمر بيني وبين ستّه.

فضحك، وقال: إنّها هي - والله - أعشق منك لها، وما بها حاجة إلى ما اشترته منك، وإنّما تجيئك محبّة لمطاولتك، فخاطبها بما تريد، فإنّها تقبله، وتستغني عنّي.

فعدت، وكنت قلت لها: إنّي أمضي لأنقد الدنانير، فلمّا عدت، قالت: نقدت الدنانير؟ وضحكت، وقد كانت رأتني مع الخادم.

فقلت لها: يا ستّي، الله، الله، في دمي، وخاطبتها بما في نفسي منها، فأعجبها ذلك، وقبلت الخطاب أحسن القبول.

وقالت: الخادم يجيئك برسالتي بما تعمل عليه، وقامت ولم تأخذ منّي شيئًا، فوفيت الناس أموالهم، وحصلت ربحًا واسعًا، واغتممت خوفًا من انقطاع السبب بيني وبينها، ولم أنم ليلتي قلقًا وخوفًا.

فلمّا كان بعد أيّام جاءني الخادم، فأكرمته، ووهبت له دنانير لها صورة، وسألته عنها.

فقال: هي - والله - عليلة من شوقها إليك.

فقلت: فاشرح لي أمرها؟

فقال: هذه صبيّة ربّتها السّيدة أمّ أمير المؤمنين المقتدر بالله، وهي من أخصّ جواريها عندها، وأحظاهنّ، وأحبهنّ إليها.

وإنّها اشتهت رؤية الناس، والدخول والخروج، فتوصّلت حتى صارت القهرمانة[1]، وصارت تخرج في الحوائج، فترى الناس.

---

(1) القهرمانة: انظر الشرح في آخر القصة.

وقد - والله - حدّثت السيّدة بحديثك، وسألتها أن تزوّجها منك، فقالت: لا أفعل، أو أرى الرجل، فإن كان يستحقّك، وإلاّ لا أدعك واختيارك.

وتحتاج إلى أن تتحيّل في إدخالك إلى الدار[1] بحيلة، إن تمّت وصلت إلى تزويجها، وإن انكشفت ضربت عنقك، فما تقول؟

فقلت: أصبر على هذا.

فقال: إذا كان الليلة، فاعبر إلى المخرّم[2]، وادخل المسجد الذي بنته السيّدة على شاطئ دجلة، وعلى حائطه الأخير مما يلي دجلة، اسمها مكتوب بالآجر المقطوع، فبت فيه.

قال أبو الفرج بن النرسي: وهو المسجد الذي قد سدّ بابه الآن سبكتكين، الحاجب الكبير، مولى معزّ الدولة، المعروف بجاشنكير[3]، وأضافه إلى ميدان داره، وجعله مصلّى لغلمانه.

قال الرجل: فلمّا كان قبل المغرب مضيت إلى المخرّم، فصلّيت في المسجد العشاءين، وبتّ فيه.

فلمّا كان وقت السحر، إذا بطيّار لطيف قد قدّم، وخدم قد نزلوه ومعهم صناديق فارغة، فجعلوها في المسجد، وانصرفوا، وبقي واحد منهم، فتأمّلته، فإذا هو الواسطة بيني وبينها.

---

(1) الدار: دار الخلافة.

(2) المخرّم: قال ياقوت في معجم البلدان 4/ 441 إنّ محلّة المخرّم كانت بين الزاهر والرصافة، وكانت تضمّ دار الوزارة إبّان وزارة ابن الفرات، ثمّ صارت دار المملكة في عهد سلاطين الدولة البويهية والسلجوقية، وقد حلّ محلّها الآن: محلّة العلوازية، والمستشفى التعليمي، أو مدينة الطبّ الآن، جزء من محلّة المخرّم.

(3) سبكتكين: القائد التركي، مولى معزّ الدولة، وحاجبه، المعروف بجاشنكير.

ثمّ صعدت الجارية واستدعتني، فقمت، وعانقتها، وقبّلت يدها، وقبّلتني قبلات كثيرة، وضمّتني، وبكيت، وبكت.

وتحدّثنا ساعة، ثمّ أجلستني في واحد من الصناديق، وكان كبيرًا، وأقفلته.

وأقبل الخدم يتراجعون بثياب، وماء ورد، وعطر، وأشياء قد أحضروها من مواضع، وهي تفرّق في باقي الصناديق، وتقفل، ثمّ حملت الصناديق في الطيّار، وانحدر.

فلحقني من الندم أمر عظيم، وقلت: قتلت نفسي لشهوة لعلّها لا تتمّ، ولو مت ما ساوت قتل نفسي، وأقبلت أبكي، وأدعو الله عزّ وجلّ، وأتوب، وأنذر النذور، إلى أن حملت الصناديق بما فيها، ليجاز بها في دار الخليفة، وحمل صندوقي خادمان أحدهما الواسطة بيني وبينها.

وهي كلّما اجتازت بطائفة من الخدم الموكّلين بأبواب الحرم، قالوا: نريد تفتّش الصناديق، فتصيح على بعضهم، وتشتم بعضهم، وتداري بعضهم.

إلى أن انتهت إلى خادم ظننته رئيس القوم، فخاطبته بخضوع وذلّة، فقال لها: لا بدّ من فتح الصناديق وبدأ بصندوقي فأنزله.

فحين أحسست بذلك ذهب عقلي، وغاب عليّ أمري، وبلت في الصندوق، فجرى بولي حتى خرج من خلله[1].

فقالت: يا أستاذ[2]، أهلكتني، وأهلكت التجّار، وأفسدت علينا متاعًا بعشرة آلاف دينار في الصندوق ما بين ثياب مصبّغات، وقارورة فيها أربعة

(1) الخلل: وجمعه خلال، المنفرج بين الشيئين، وخلل الصندوق: الفرجات بين ألواحه، والخلل كذلك جمع خلّة، وهي الثقبة.

(2) الأستاذ: المعلّم والرئيس، أصلها فارسي: أستاد، وبالتركية والكرديّة أستا.

أمنان من ماء زمزم، قد انقلبت وجرت على الثياب، والساعة تستحيل ألوانها.

فقال: خذي صندوقك، أنت وهو، إلى لعنة الله، مرِّي.

فحمل الخادمان صندوقي، وأسرعا به، وتلاحقت الصناديق.

فما بَعُدْنا ساعة حتى سمعتها تقول: ويلاه، الخليفة، فعند ذلك متُّ، وجاءني ما لم أحتسبه.

فقال لها الخليفة: والك[1]، يا فلانة، أيّ شيء في صناديقك؟

فقالت: ثياب للسيّدة.

فقال: افتحيها حتّى أراها.

فقالت: يا مولاي، الساعة تفتحها ستّنا بين يديك.

فقال: مرّي، هوذا أجي[2]:

فقالت للخدم: أسرعوا، ودخَلتْ حجرة، ففتحَتْ صندوقي، وقالت: اصعد تلك الدرجة[3]، ففعلت، وأخذت بعض ما في تلك الصناديق، فجعلته في صندوقي، وأقفلته.

وجاء المقتدر، فحملت الصناديق إلى بين يديه، ثمّ عادت إليّ، فطيّبت نفسي، وقدّمت لي طعامًا وشرابًا، وما يحتاج إليه، وأقفلت الحجرة، ومضت.

فلمّا كان من غد جاءتني، فصعدت إليّ، وقالت: الساعة تجيء السيِّدة لتراك، فانظر كيف تكون؟

---

(1) والك: أصلها ويلك، خفّفت إلى والك.

(2) هوذا: تعبير بغدادي، معناه: ها أنا، أو : الآن.

(3) الدرجة: المرقاة.

فما كان بأسرع من أن جاءت السيّدة: فجلست على كرسي، وفرّقت جواريها، ولم يبق معها غير واحدة منهنّ، ثمّ أنزلتني الجارية.

فحين رأيت السيّدة قبّلت الأرض، وقمت فدعوت لها.

فقالت لجاريتها: نِعْمَ ما اخترت لنفسك هو - والله- كيّس، عاقل، ونهضَتْ.

فقامَتْ معها صاحبتي وتَبِعْتُها، وأَتتْ إليّ بعدَ ساعةٍ، وقالت:

أبشرْ فقد - والله - وعدتني أن تزوجني بك، وما بين أيدينا عقبة إلاّ الخروج.

فقلت: يسلّم الله تعالى.

فلمّا كان من غدٍ حملتني في الصندوق، وخرجت كما دخلت، وكان الحرص على التفتيش أقلّ، وتركت في المسجد الذي حملت منه في الصندوق، وقمت بعد ساعة، ومضيت إلى منزلي، وتصدّقت، ووفيت بنذري.

فلمّا كان بعد أيّام، جاءني الخادم برقعتها، بخطّها الذي أعرفه، وكيس فيه ثلاثة آلاف دينار عينًا، وهي تقول في رقعتها: أمرتني السَّيدة بإنفاذ هذا الكيس من مالها إليك، وقالت: اشتر ثيابًا، ومركوبًا، وغلامًا يسعى بين يديك، وأصلح به ظاهرك، وتجمّل بكل ما تقدر عليه، وتعال يوم الموكب[1] إلى باب العامّة[2]، وقف حتى تطلب، وتدخل على الخليفة، وتتزوّج بحضرته.

(1) يوم الموكب: اليوم الذي يجلس فيه الخليفة جلوساً عاماً.

(2) باب العامّة: أحد أبواب دار الخلافة، وكانت في شرق الدار، وهي أقرب أبواب الدار إلى جامع الخلفاء.

فأجبت على الرقعة، وأخذت الدنانير، واشتريت منها ما قالوه، واحتفظت بالباقي.

وركبت بغلتي يوم الموكب إلى باب العامّة، ووقفتُ، وجاءني من استدعاني، فأدخلني على المقتدر، وهو على السرير، والقضاة، والهاشميون، والحشم قيام، فداخلتني هيبة عظيمة، فخطب بعض القضاة، وزوّجني، وخرجت.

فلمّا صرت في بعض الممرّات، عدل بي إلى دار عظيمة، مفروشة بأنواع الفرش الفاخر، والآلات، والخدم، فأجلست، وتركت وحدي، وانصرف مَنْ أجلسني.

فجلست يومي لا أرى من أعرف، وخدم يدخلون ويخرجون، وطعام عظيم ينقل، وهم يقولون: الليلة تزفّ فلانة- اسم زوجتي- إلى زوجها، ها هنا.

فلمّا جاء الليل أثر الجوع فيّ، وأقفلت الأبواب، وأيستُ من الجارية، فبقيت أطوف في الدار، إلى أن وقعت على المطبخ، فإذا قوم طبّاخون جلوس، فاستطعمت منهم، فلم يعرفوني، وظنّوا أنّي بعض الوكلاء. فقدّموا إليّ زيرباجة، فأكلت منها، وغسلت يدي بأشنان[1] كان في المطبخ، وأنا مستعجل لئلاَ يفطن بي، وظننت أنني قد نقّيت من ريحها، وعدت إلى مكاني.

فلمّا انتصف الليل إذا بطبول، وزمور، والأبواب تفتح، وصاحبتي قد

---

(1) الأشنان: ويلفظ بكسر أوّله أو بضمّه، أعواد صغيرة بيضاء أو صفراء، تدقّ وتستعمل في تنقية الأيدي من الوضر.

أهديت إليّ[1]، وجاءوا بها فجلوها عليّ[2]، وأنا أقدّر أن ذلك في النوم، ولا أصدّق فرحًا به، وقد كادت مرارتي تنشقّ فرحًا وسرورًا، ثمّ خلوت بها، وانصرف الناس.

فحين تقدّمتُ وقبّلتها، رفستني فرمت بي عن المنصّة، وقالت: أنكرت أن تفلح يا عامّي، أو تصلح يا سفلة[3]، وقامت لتخرج.

فتعلّقت بها، وقبّلت يديها ورجليها، وقلت: عرّفيني ذنبي، واعملي بعده ما شئتِ.

فقالت: ويلك، تأكل، ولا تغسل يدك؟ وأنت تريد أن تختلي بمثلي؟

فقلت: اسمعي قصّتي، واعملي ما شئت بعد ذلك.

فقالت: قل.

فقصصت عليها القصّة، فلمّا بلغت أكثرها، قلت: وعليّ، وعليّ، وحلفت بأيمان مغلظة، لا أكلت بعد هذا زيرباجة، إلاّ غسلت يدي أربعين مرّة.

فأشفقت[4]، وتبسّمتْ، وصاحت: يا جواري. فجاء مقدار عشر جواري ووصائف، فقالت: هاتم[5] شيئًا للأكل.

فقدّمت إلينا مائدة حسنة، وألوان فاخرة، من موائد الخلفاء، فأكلنا

---

(1) إهداء العروس إلى بعلها: زفّها إليه.

(2) جليت العروس على زوجها: عرضت عليه مزيّنة مصقولة.

(3) السفلة: السقط والغوغاء من الناس.

(4) أشفق: حنا وعطف.

(5) هاتم: لغة بغدادية في هاتوا.

جميعًا، واستدعت شرابًا، فشربنا، أنا وهي، وغنّى لنا بعض أولئك الوصائف.

وقمنا إلى الفراش، فدخلت بها، وإذا هي بكر، فافتضضتها، وبتّ بليلة من ليالي الجنّة، ولم نفترق أسبوعًا، ليلًا ونهارًا، إلى أن انقضت وليمة الأسبوع[1].

فلمّا كان من غدٍ، قالت لي: إنّ دار الخليفة لا تحتمل المقام فيها أكثر من هذا، وما تمّ لأحد أن يدخل فيها بعروس غيرك، وذلك لعناية السيّدة بي، وقد أعطتني خمسين ألف دينار، عن عَيْن وَوَرَقٍ، وجوهر، وقماش، ولي بخارج القصر أموال وذخائر أضعافها، وكلّها لك، فاخرج، وخذ معك مالًا، واشتر لنا دارًا حسنة، عظيمة الاتّساع، يكون فيها بستان حسن، وتكون كثيرة الحُجَر، ولا تضيّق على نفسك، كما تضيق نفوس التجّار، فإنّي ما تعودت أسكن إلاّ في القصور، واحذر من أن تبتاع شيئًا ضيّقًا، فلا أسكنه، وإذا ابتعت الدار، فعرّفني، لأنقل إليك مالي، وجواريّ، وأنتقل إليك.

فقلت: السمع والطاعة.

فسلّمت إليّ عشرة آلاف دينار، فأخذتها، وأتيت إلى داري، واعترضت الدور، حتى ابتعت ما وافق اختيارها، فكتبت إليها بالخبر، فنقلت إليّ تلك النعمة بأسرها، ومعها ما لم أظنّ قط أني أراه، فضلًا عن أني أملكه، وأقامت عندي كذا وكذا سنة، أعيش معها عيش الخلفاء، وأتّجر من خلال ذلك، لأنّ نفسي لم تسمح لي بترك تلك الصنعة، وإبطال المعيشة، فتزايد مالي وجاهي، وولدت لي هؤلاء الشباب،، وأومأ إلى أولاده، وماتت رحمها الله، وبقي عليّ مضرّة الزيرباجة، إذا أكلتها، غسلت يدي أربعين مرّة.

(1) يظهر أنه كان عندهم تقليد يقضي بإقامة وليمة في نهاية الأسبوع الأول من الزواج.

عشق جارية زوجته
فوهبتها له(1)

ووجدتُ في بعض كتبي: قال أبو عبد الله محمَّد بن عليّ بن حمزة:

كانت لزوجتي جارية حسنة الوجه، فَعَلِقْتُها، وعلمت زوجتي بذلك، فحجبتها عنّي، فاشتدّ ما بي من الوجد عليها، وقاسيت شدّة شديدة.

فبينا أنا ذات ليلة نائم، ومولاتها زوجتي إلى جانبي، إذ رأيت في منامي كأنّ الجارية حيالي، وأنا أبكي، إذ لاح لي إنسان فأنشدني:

وقفتُ حِيالَكَ أذري الدّموعَ
وأخلط بالدّمعِ منّي دَما

وأشكُو الذي بِي إلى عاذِلي
ولا خيرَ في الحبّ أن يُكْتَما

رَضِيتُ بِما ليس فيهِ رضًا
بتسليمِ طرفِكَ إنْ سَلّما

فَتِهْتَ عليّ وأقصَيْتَني
وأعززْ عليَّ بأنْ أُرْغَما

---

(1) الفرج بعد الشّدّة 4/ 393.

قال: فانتبهت فزعًا مرعوبًا، ودعوت بدواة وقرطاس، وجلست في فراشي، وكتبت الشعر.

قالت لي زوجتي: ماذا تصنع؟ فقصصت عليها القصة والرؤيا.

فقالت: هذا كلّه من حبّ فلانة؟ قد وهبتها لك.

* * *

بالله يا طرفي الجاني على كبدي[1]

حدَّث معبد الصَّغير المغنّي[2]، قال:

كنت منقطعًا إلى البرامكة، فبينما أنا ذات يوم في منزلي، وإذا ببابي يدقّ، فخرج غلامي ثمّ رجع إليّ.

فقال: على الباب فتى ظاهر المروءة، يستأذن عليك.

فأذنت له، فدخل عليّ شاب، ما رأيت أحسن منه وجهًا، ولا أنظف منه ثوبًا وألا أجمل زيًّا، عليه أثر السقم ظاهر.

فقال لي: يا سيِّدي أنا منذ مدّة أحاول لقاءك، ولا أجد إليه سبيلًا، ولي إليك حاجة.

قلت: ما هي؟ فاخرج إليّ ثلثمائة دينار، فوضعها بين يديّ.

ثمّ قال: أسألك أن تقبلها، وتصنع في بيتين قلتهما لحنًا تغنّيني به.

فقلت له: هاتهما، فأنشدني:

بـالـلـه يـا طـرفَـي الـجـانـي عـلـى كَـبِـدي
لَـتُـطْـفِـئـنَّ بـدمـعـي لـوعَـةَ الـحَـزَنِ

---

(1) الفرج بعد الشِّدَّة 4/ 394.

(2) معبد الصغير المغنّي: خلاسي من مولّدي المدينة، نشأ بها، وأخذ الغناء عن أهلها.

أو لا تـوخّـر حَتَّـى يَـحْـجبـوا سَـكَـنـي[1]

فــلا أراه ولـــو أُدرِجْـــتُ فـــي كَــفَــنـــي

قال: فصنعت فيهما لحنًا، ثقيل أوّل، مطلق في مجرى الوسطى، ثمّ غنّيته إيّاه، فأغمي عليه، حتى ظننته قد مات.

ثمّ أفاق: فقال: أعد فديتك.

قلت: أخشى أن تموت.

فقال: هيهات، هيهات، أنا أشقى من ذلك، فأعد عليّ.

وما زال يخضع ويتضرّع، حتى أعدته، فصعقَ صعقة أشدّ من الأول، حتى ظننت نفسه قد فاظت، فلمّا أفاق، رددت عليه الدنانير.

وقلت له: خذ دنانيرك، وانصرف عنّي، فقد قضيت حاجتك، وبلغت وطرًا مما أردته، ولستُ أحبّ أن أشارك في دمك.

فقال: لا حاجة لي في الدنانير، وهذه مثلها لك، وأخرج ثلثمّائة دينار أخرى.

وقال: أعد عليّ الصوت مرّة أخرى، وحلال لك دمي.

فقلت: لا والله، إلاّ على شرط.

قال: وما هو؟

قلت: تقيم عندي، وتتحرّم بطعامي وتشرب أقداحًا من النبيذ تشدّ قلبك، وتسكّن بعض ما بك، وتحدّثني بقصّتك.

فقال: أفعل.

(1) سكني: حبيبي الذي أسكن إليه.

فأخذت الدنانير، ودعوت بطعام، فأصاب منه، وبالنبيذ، فشرب أقداحًا، وغنّيته بشعر غيره في معناه، وهو يشرب ويبكي.

ثمّ قال: الشرط، أعزك الله، فغنّيته صوته، فجعل يبكي أحرّ بكاء، وينتحب.

فلمّا رأيت ما به قد خفّ عمّا كان يلحقه، والنبيذ قد شدّ من قوّته، كررت عليه صوته مرارًا، ثمّ قلت له: حدّثني حديثك.

فقال: أنا رجل من أهل المدينة، خرجت يومًا متنزّهًا في ظاهرها، وقد سال العقيق[1]، في فتية وأقران، فبصرنا بفتياتٍ قد خرجن لمثل ما خرجنا نحن له، فجلسن قريبًا منّا.

ونظرت بينهنّ إلى فتاة كأنّها قضيب بان قد طلّه الندى، تنظر بعينين، ما ارتدّ طرفهما إلاّ بنفس من يلاحظهما، فأطلنا وأطلن، حتى تفرّق الناس.

وانصرفنا، وقد أبقت بقلبي جرحًا بطيئًا اندماله، فسرت إلى منزلي وأنا وقيذ[2].

وخرجت من غد إلى العقيق، وليس فيه أحد، فلم أر لها أثرًا، ثمّ جعلت أتتبّعها في طرق المدينة وأسواقها، فكأنّ الأرض ابتلعتها، وسقمت، حتى يئس منّي أهلي.

فأعلمت زوجة أبي بذلك، فقالت: لا بأس عليك، هذه أيّام الربيع قد أقبلت، وهي سنةُ خصبٍ، والساعة يأتي المطر، فتخرج وأخرج معك، فإنّ

---

(1) العقيق: مسيل ماء شقّه السيل في الأرض، فأنهره، ووسّعه.

(2) الوقيذ: الصريع، أو المشرف على الموت من شدّة الضرب.

النسوة سيجئن، فإذا رأيتها اتّبعتها، حتى أعرف موضعها، ثمّ أصل بينكما، وأسعى لك في تزويجها.

قال: فكأنّ نفسي اطمأنّت، ورجعت، وجاء المطر، وسال العقيق، وخرجت مع إخواني إليه، وزوجة أبي معنا، فجلسنا مجلسنا الأوّل، فما كنّا والنسوة إلاّ كفرسي رهان[1]، فأومأتُ إلى زوجة أبي، فجلسَتْ قريبًا منها.

وأقبلت على إخواني، فقلت لهم: أحسن والله القائل إذ يقول:

رَمَتْني بسهم أَقْصَدَ القلبَ وانْثَنَتْ
وقد غادَرَتْ جرحًا به ونُدوبا

فأقبلت على صويحباتها، وقالت: أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول:

بنا مثل ما تشكو فصبرًا لعلّنا
نرى فرجًا يشفي السقام قريبًا

قال: فأمسكتُ عن الجواب، خوفًا أن يظهر منّي ما يفضحنا وإيّاها، وانصرفنا.

وتبعتها زوجة أبي، حتى عرفت بيتها، وصارت إليّ، وأخذت بيدي، ومضينا إليها، وتزاورنا، وتلاقينا على حال مراقبة ومخالسة.

حتى ظهر ما بيني وبينها، فحجبها أهلها وتشدّد عليها أبوها، فلم أقدر عليها.

فشكوت إلى أبي شدّة ما نالني، وشدّة ما ألقى، وسألته خطبتها.

فمضيت أنا وأبي ومشيخة قومي إلى أبيها، فخطبوها، فقال: لو كان بدأ

---

(1) فرسا رهان: تقال للمتساويين في المرتبة. والمقصود هنا أنهما جاءا معاً.

بهذا من قبل أن يشهرها، لأسعفناه بحاجته وبما التمس، لكنه قد فضحنا، فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إيّاها، فانصرفت على يأس منها ومن نفسي، قال معبد: فسألته أن ينزل بقربي، فأجابني، وصارت بيننا عشرة.

ثمّ جلس جعفر بن يحيى يومًا للشرب، فأتيته، فكان أوّل صوت غَنَّيْتُهُ بشعر الفتى، فطرب عليه طربًا شديدًا، وقال: ويحك لمن هذا الصوت؟ فحدّثته فأمر بإحضار الفتى، فأحضر في وقته، فاستعاده الحديث، فأعاده.

فقال له: هي في ذمّتي، حتّى أزوّجك بها. فطابت نفسي ونفس الفتى، وأقام معنا ليلتنا حتّى أصبح.

وغدا جعفر إلى الرشيد، فحدّثه الحديث، فعجب منه، وأمر بإحضارنا جميعًا، وأمر بأن أغنيه الصوت، فغنيّته، وشرب عليه، وسمع حديث الفتى.

فأمر من وقته، بأن يكتب إلى عامل الحجاز، بإشخاص الرجل وابنته، وسائر أهله إلى حضرته.

فلم تمض إلاّ مسافة الطريق، حتى أحضر، فأمر الرشيد بإحضاره إليه، فأوصل، وخطب إليه الجارية للفتى، فأجابه، فزوّجه إيّاها، وحمل الرشيد إليه ألف دينار مهرها، وألف دينار لجهازها، وألف دينار لنفقته، في طريقه، وأمر للفتى بألفي دينار.

وكان المديني بعد ذلك من جملة ندمائه.

والكلمة الأخيرة
لنزار قباني

• • •

لَمْ أعُدْ داريًا .. إلى أيْنَ أذْهَبْ
كُلَّ يومٍ أحسُّ أنَّك أقرَبْ
كُلَّ يَوْمٍ .. يَصيرُ وَجْهُكِ جُزءًا
من حياتي ... ويُصْبحُ العُمْرُ أخْصَبْ
وَتصيرُ الأشْكالُ أجْمَلَ شَكْلًا
وتَصيرُ الأشياءُ أحلْى وأطْيَبْ
قد تَسَرَّبْتِ في مساماتِ جِلْدِي
مِثْلَما قَطْرةُ النَّدى تَتَسَرَّبْ
إعتيادي على غيابِكِ صَعبٌ
واعْتيادي على حضورِكِ أصْعَبْ
كم أنا... كم أنا أُحبُّكِ... حَتَّى
إنَّ نَفْسي من نَفْسِها تَتَعَجَّبْ
يَسْكُنُ الشِّعْرُ في حدائِقِ عَيْنَيْكِ
فَلَولا عيناكِ لا شعرَ يُكْتَبْ
مُنْذُ أحبَبْتُكِ... الشموسُ اسْتدارَتْ
والسَّماواتُ صِرْنَ أنْقَى وَأرْحَبْ
مُنْذُ أحْبَبْتُكِ... البحارُ جميعًا
أصْبَحَتْ منْ مياهِ عَيْنَيْكِ تَشْرَبْ

حُـبُّـكِ الـبـربَـرِيُّ أكـبَـرُ مِـنِّـي
فَـلِـمـاذا عـلـى ذِراعَـيْـكِ أُصْـلَـبْ؟

أتَـمَـنّـى لـو كُـنْـتِ بُـؤبُـؤَ عَـيْـنـي
أتُـرانـي طَـلَـبْـتُ ما لـيـسَ يُـطْـلَـبْ؟
أنْـتِ أحْـلَـى خُـرافَـةٍ فـي حـيـاتـي
والـذي يَـتْـبَـعُ الـخـرافـاتِ يَـتْـعَـبْ

* * *

قولي: أُحِبُّكَ

قولي: «أُحِبُّكَ» كي تَزيدَ وَسامَتي
فَبِغَيْرِ حُبُّكِ لا أكونُ جَميلا
قولي: «أُحِبُّكَ» كي تصيرَ أصابِعي
ذَهَبًا، وَتُصبحَ جَبْهَتي قِنْديلا
قولي: «أُحِبُّكَ» كي يَتِمَّ تَحَوُّلي
فَأصيرَ قَمْحًا، أو أصيرَ نَخيلا

الآنَ قوليها، ولا تَتَرَدَّدي
بَعْضُ الهوَى لا يَقْبَلُ التَّأجيلا
قولي: «أُحِبُّكَ» كي تزيدَ قَداسَتي
ويَصيرَ شِعْري، في الهوى، إنْجيلا

سأُغَيِّر التَّقويمَ لوْ أحْبَبْتِني
أمْحو فُصولًا أو أُضيفُ فُصولا
وسَينْتَهي العَصْرُ القديمُ على يدي
وَأُقيمُ مَمْلَكَةَ النِّساءِ بَديلا
قولي: «أُحِبُّك» كي تصيرَ قصائدي
مائِيَّةً، وكِتابتي تَنْزيلا

مَلِكٌ أنا لوْ تُصْبِحينَ حبيبتي
أغْزو الشُّموسَ مَراكِبًا وخُيولا
لا تَخْجَلي مِنّي، فَهذي فُرْصَتي
لأكونَ رَبًّا، أو أكونَ رسولا

الفهرس

المقدمة 5

كُثَيِّر عَزَّة

من أخباره 11

أوَّل لقائه بعزَّة 13

عزَّة وعبد الملك بن مروان 16

عزَّة وعاتكة بنت يزيد أو أم البنين 18

عزَّة وغلام كُثَيِّر 19

عزَّة وجَمَل كُثيِّر 20

كثيِّر وعبد الملك بن مروان 21

عِتاب المُحبّين 23

كثيِّر يعشق امرأةً من خُزاعة 24

على قبر عَزَّة 27

الحُبّ العفيف 29

كُثَيِّر الخائن 30

في دَفْنِ كُثيِّر 32

أعشقُ من كثيِّر عزَّة 34

من أجمل أشعاره 37

نظرة 42

متى يَجْتَمع شمْلُنا؟ 45
هو وهي... 46
قصيرة... 48
حبٌّ صابِر... 49
العيش والموت... 50
إزارُ لُبْنَى 51
تفرُّدٌ 51
بالقَلْبِ لا بالعَيْن... 51
كِلانا مَريضانِ 52
حَيِّ يا جَمَلُ 53
الدَّواء... 54
هَمَمْتُ وهمَّتْ 54

توبة بن الحميِّر

ليلى الأخيليَّة 59
من أخبارهما 61
ليلى والحجّاج 63
ليلى ومعاوية بن أبي سفيان 69
ليلى وعبد الملك بن مروان 73
وفاة ليلى 74
زوج ليلى يضربها! 76
من أجمل شعرهما 79
من شعره فيها: 81
الخوف الصّادق... 84

عروة بن حزام

أخباره كما جاءت في كتاب «الأغاني» 91

أم عفراء تشترط مهرًا غاليًا 94

وداعُ عفراء 95

عروة يعرف حقيقة الأمر 97

شهامة زوج عفراء وطيبته 98

مع طبيب 99

يخاطب صاحبيه بقصته 101

موته ثمّ موت عفراء 103

خبر عن معرفته بتزويجها 104

خبر موته 105

موت عفراء 108

طوافه حول الكعبة 109

قصص حبّ من كتاب «الفَرَج بعد الشّدّة» 111

من مكارم المقتدر 113

فارق جاريته ثمّ اجتمع شملهما 119

ابن أبي حامد صاحب بيت المال يحسن إلى صيرفي 131

أقسم أن يغسل يده أربعين مرّة إذا أكل زيرباجة 134

عشق جارية زوجته فوهبتها له 145

بالله يا طرفي الجاني على كبدي 147

والكلمة الأخيرة لنزار قباني 153

. . . . 155

قولي: أُحِبُّكَ 157